

ع

مكتبة
مكتبة

مصطفى محمود





صلى الله
عليه وسلم

محاولة لفهم السيرة النبوية

مصطفى محمود

الطبعة العاشرة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



محضر



« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ »
(البقرة : ٢١٣) .

هكذا بدأت الحال بالناس أمة واحدة على الجهل والمادية والكفر وعبادة
اللذة العاجلة ، لا يؤمنون إلا بما يقع في دائرة حواسهم ، ولا تتجاوز أشواقهم
دائرة المعدة والغرائز ، ثم نزلت الكتب والرسل فتفرق الناس بين مصدق
ومكذب ، بين مؤمن وكافر ، واختلفوا شيعاً وطوائف .

هكذا يروى لنا التاريخ من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى يعقوب إلى
إسحاق إلى إسماعيل إلى موسى وعيسى ومحمد خاتم النبيين عليه الصلاة
والسلام .

ثم مرت قرون وقرون بالإسلام ضعف فيها شأن الأديان ، واستدار
الزمان كهيبته الأولى يوم خلق الله السموات والأرض ، وعادت الجاهلية
تلف الناس في ليل مظلم ، هذه المرة جاهلية أشد كثافة وغلظة من الجاهلية
الأولى . . هي جاهلية القرن العشرين المتنكرة في ثوب العلم المادى وغروره . .
يتبعج بها ناس مشوا على تراب القمر ، وشيدوا ناطحات السحاب ، وغاصوا

إلى قيعان البحر ، وانطلقوا إلى أقاصى الفضاء ، وخضروا الصحارى ، وزرعوا الأجنة فى القوارير . . وظنوا أن علومهم من عند أنفسهم ، فأخذهم الكبر والزهو ، وتصوّروا أنه قد حان الوقت ليهزموا الموت ، ويبلغوا الخلود ، ويفرغوا من الأمر كله .

كاد الناس فى هذا الزمان يعودون إلى الجاهلية الأولى أمة واحدة على الإنكار والكفر ، يتسم الواحد منهم فى سخرية إذا رأى من يصوم أو يصلى ، ويقول فى نفسه : هذا العبيط . . لمن يصلى ؟ . . ويرى فى الإيمان بالغيبات سذاجة وغفلة ، ويرى الذكاء والفطنة والعلم فى رفض هذه الخزعبات والأساطير .

فى هذا العصر ظهر لون جديد من كتب السيرة يحاول فيه الكاتب أن يجدد محمداً عليه الصلاة والسلام من كل ما هو سوامى غيبى ، ويتصوره فى غار حراء وقد اختلى بنفسه لا ليناجى ربه وإنما ليتأمل أحوال البروليتاريا فى قریش ، ويفكر كيف يستنقذهم من مظالم السادة بشرية جديدة ، وقد جعل من النبى العظيم شيئاً كجيفارا ، ومن الإسلام شيئاً كثورة اجتماعية ، وظن بهذا أنه كان علمياً فى استقصاء حياة محمد . . وأنه باستبعاده حكاية جبريل ونزول القرآن إملأ من عند الله ، وإسراء النبى إلى المسجد الأقصى وعروجه إلى السموات العلا - ظن بهذا أنه خدع العقيدة ، ورفع من شأن رسولها . . وأنه كان يتكلم لغة العصر ، ويخاطب الكافر بلغته . . والحقيقة أنه لم يكن يخاطب الكافر بلغته ، بل كان يصانعه ويداهنه ويتألفه بالكذب والترصيف ، وينزل بنبيه إلى درك السياسيين المغامرين ، ويجرده من العصمة والقداسة .

وحجته في ذلك ما قال الله لمحمد في القرآن :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » .

وليته أكمل الآية :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ » (الكهف : ١١٠) ، فهذه

التيمة تنفي المثلية التي تصورها كاتب السيرة ، فمحمد بشر مثلنا وليس بشراً مثلنا . . لأنه يوحى إليه ونحن لا يوحى إلينا بشيء . . وإنما نحن أصحاب اجتهاد على الأكثر . . أقصى ما نحلم به هو انقذاح الفكر وفيض الخاطر .

وهذا الفرق الدقيق هو سر النبوة

إن النبي مثلنا وليس مثلنا .

هو في حضرة الملائ الأعلى والملكوت يرى جبريل رؤية عين ، ويسمع

منه ، ونحن في الحضرة الأرضية ، وفي الحضيض البشري محجوبون لا حظ لنا في هذه المراتب العالية .

هو برزخ بين الشهادة والغيب .

ونحن على شاطئ الشهادة والمحسوس لا نكاد نطل على البر الآخر إلا في

حلم أو شطحة أو كرامة .

وهذا هو الفرق بين النبي والولي والمصلح الاجتماعي .

النبي جالس على المائدة الربانية يتلقى من ربه الكلمة والتشريع

والتكليف . . وهو معصوم لا ينطق عن الهوى .

والولي كل حظه لحظة شفافية وإطلاقة خاطفة من باب موارد ما يلبث

أن يعود فينغلق ، وليس له عصمة ولا تكليف ولا تبليغ .

والمصلح الاجتماعي من أهل الاجتهاد مثله مثلنا ، وحظه حظنا ،

يخطئ ويصيب ، ولا عصمة له ، ولا خروج من دائرة المحسوس ، ولا
تحليق إلا بالخيال والحدس والتخمين .

وأى فرق هائل بين هذه المراتب ؟ . . تكاد كل مرتبة تكون فى فلك .
وأى سقوط بالنبوة إذا نحن جردناها من هذه الصلة الربانية ؟ . .
وماذا يبقى من الدين إذا جردناه من الغيب ؟
إنه التكذيب بعينه وقد أخذ صورة العبارة العلمية الملفوفة . ألم يصف
الله المؤمنين بأنهم :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » (البقرة : ٢)

فجعل شرط الإيمان هو الاعتقاد بالغيب .

« وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا » (النساء : ١٣٦) .

فالإيمان بالملائكة شرط صريح للإيمان بالله .

ولكنها مادية العصر تسلفت إلى كل شئ حتى إلى فهمنا للنبوة . . وأصبح
الكاتب العصرى يتصور أنه يكون أذكى وأفطن إذا تكلم عن محمد
عليه الصلاة والسلام كما يتكلم عن أبراهام لنكولن ، فهذا هو الفهم
العلمى للأمر .

وما هو بالفهم العلمى ولا الموضوعى .

فكل نبي مصلح ، وليس أى مصلح بنى مهما بلغت إصلاحاته .
لأن جوهر النبوة ليس الإصلاح ولا التعمير . ولكن جوهر النبوة هو هذه

الصلة المهمة بالله وبغيبه المغيّب ، هو هذه الحالة البرزخية بين الطبيعة وما وراء الطبيعة .

هذه الحالة التي تجعل من النبي مستمعاً من نوع فريد يتلقى الإلهام من آفاق أعلى لا يرقى إليها غيره .

ولهذا يحتاج النبي إلى إعداد روحي يختلف تماماً والإعداد العقلي الذي يحتاج إليه المصلح الاجتماعي .

فإذا كانت عدة المصلح الاجتماعي هي الدراسة والخبرة والعكوف على المراجع وأمهات الكتب المتخصصة ، فإن عدة النبي مختلفة تماماً . . فهو في غير حاجة إلى الدراسة والعكوف على الكتب ، وإنما إلى إرهاب السمع إلى الكون ، وتجريد قلبه من الشواغل ، وتخليص همته من التشتت في توافه الأمور ، والخروج بنفسه من شدّ وجذب الرغبات والنزوات والشهوات ، وجمع الهمة وتركيزها في طلب شيء واحد هو حقيقة الحقائق . . الله سبحانه .

ولهذا يخرج إبراهيم إلى الفلوات يتأمل القمر والنجوم ، ويخرج المسيح إلى البرية ، ويصوم موسى أربعين يوماً لميقات ربه ، ويختلي محمد في الغار .

لم يعتزل محمد في الغار ليقوم بدراسة البروليتاريا في قریش كما زعم أصحابنا . . وإنما لنكتة تدل على مدى ما بلغت عقول الماديين من سطحية وخواء ، فلم يكن في قریش صناعة ليكون فيها بروليتاريا . . وإنما كان فيها أرقاء . . وكانت تأتي الحروب القبلية فتجعل من السادة رقيقاً ومن الرقيق سادة هكذا فجأة دون أى مضمون طبقى في الموضوع . . الغالب يجعل من المغلوب رقيقاً وسبائاً حتى تدور عليه الدوائر فتقلب الأوضاع .

وقد جاء محمد في المجتمع القرشي رقيق ، وترك محمد الدنيا وفي قريش رقيق . . وكان لمحمد - عليه الصلاة والسلام - في حياته سبي ورقيق من غزواته . . إذن لم يكن همّ محمد في الغاروما بعد الغار مسألة السادة والمعيبد . . وإنما كان همه الوحيد هو معرفة الإله ثم التعريف به واحداً لا شريك له . ولم تكن معركة الإسلام هي التغيير الطبقي ، وإنما كانت معركته هي الانتقال بالعقول من فكرة تعدد الآلهة إلى فكرة التوحيد ، ومن العبادة الوثنية إلى التجريد . . ولهذا حرص محمد - عليه الصلاة والسلام - بعد الإسلام على أن يثبت كل زعيم على زعامته وكل سيد على مكان الشرف في قومه دون تبديل إلا أن يرفض تحطيم الأصنام ، فكان حينئذ يخلعه من ولايته .

وإنما جاءت الوظائف الاجتماعية للدين بعد ذلك حينما بدأت تقوم دولة جديدة موحدة في حاجة إلى تشريع جديد وقوانين جديدة وعلاقات جديدة ، فنزلت الآيات الخاصة بالعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة كما شرحنا إسهاب في مكان آخر؛ وسوف يعود السائل فيسأل :

ولماذا لا يكون محمد عبقرياً ملهماً ؟

ولماذا لا نرى فيه مصلحاً من طراز فريد ؟

ولماذا لا يكون السياسي والقائد والزعيم الذي لا يوجد بمثله الزمان ؟

وكيف نقنع العقل العلمي بالبحث بحكاية النبوة هذه ، علماً بأن مسألة جبريل ونزول القرآن من السموات مسألة لم يباشرها إلا محمد عليه الصلاة والسلام وحده ، ولا دليل لدينا عليها ، إلا أن نسلم بها تسليماً بلا مناقشة . . وهو أمر لا يرضاه العلم ؟

وربما أوماً السائلون موافقين .

نحن معك أن هدف محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن التغيير الطبقي ، ولا كان شاغله في الغار هو مسألة السادة والعبيد ، وستوافق معك على أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يتأمل في الحقيقة ، وكان يطلب ما وراء الطبيعة . . وكان يريد الله . . ولكن أولم يكن هذا هو عينه مطلب الفلاسفة أجمعين من سقراط إلى أفلاطون إلى أرسطو إلى كانت إلى هيغل ؟ لماذا لا تراه واحداً من هؤلاء ، وبعضهم كان أمياً مثل سقراط .

لماذا تقول إنه نبي ؟ . لماذا هذا الإصرار على أنه نبي ؟

أعندك شواهد غير إيمانك يمكن أن تقنعنا عقلياً بنبوته ؟

وهي أسئلة مشروعة . . وهي تجرنا كلها جراً إلى موضوع ملامح النبوة في حياة محمد . . وهو موضوع عشت في ذهني طويلاً وأنا أطلع كتب السيرة وأطوف بين سطورها متأملاً متدبراً سيرة الإنسان الذي غير الدنيا وعاش ومات كرجل بسيط متواضع .

ولن أحكي عن الخوارق التي تروىها السير عن حياة محمد . . فالإسلام لا يلجأ إلى الخوارق لإقناع الناس . . ومحمد كان يجاوب كل من يسأله الإتيان بخوارق قائلاً : إنما أنا منذرولست بصانع معجزات . وخالد بن الوليد حينما أسلم مؤخراً ، وكان فارس قریش وسفاحها أيام الكفر ، وقف يقول :

« الآن استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه » . كان العقل والمنطق إذن هما وسيلته إلى الاقتناع ، وليست المعجزات ولا الخوارق .

وحينما غضب أبو سفيان لمقالة خالد وقال ثائراً : واللوات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بقتلك يا خالد قبل محمد .

فأجاب خالد فى إصرار : فوالله إنه لحق على رغم من رغم .

فاندفع أبو سفيان نحوه ليقتله ، فحجزه عنه عكرمة بن أبى جهل ، وكان حاضراً ، وقال : مهلا يا أبا سفيان . . أنتم تقتلون خالدًا على رأى رآه . . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم .

كان الصراع إذن صراع رأى . .

وكانت حجة الإسلام هى العقل والمنطق فى كل الأوقات ، ولم تكن المعجزات ولا الخوارق .

وهذا هو عكرمة بن أبى جهل ، وهو أشد الشباب كفراً وخصومة لمحمد ، بعد أن قتل أبوه بيد المسلمين فى بدر ، يقول فى خوف وخشية : والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبع أهل مكة محمداً كلهم .

وقد خاف الحجة البينة التى رآها تكتسح الناس اكتساحاً . . ولم يخش من محمد معجزة ولا كرامة .

وإذا كانت هناك معجزة فى الموضوع . . فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت أو شفاء أبرص أو إخراج حية من عصا .

وإنما كانت المعجزة هى ذات محمد نفسه التى جمعت الكمالات وبلغت فى كل كمال ذروته .

كان محمد ذاته كسلوك وخلق وسيرة هو المعجزة التى تسعى على الأرض .

وإن تبلغ ذاتك الكمال في صفة واحدة ، فتبزي فيها وتتفوق على أقرانك ،
فهذه هي العبقريّة .

إن تبلغ الذروة في الخطابة فأنت ديموستن . . وإن تبلغ الذروة في الشعر
فأنت بيرون ، وإن تبلغ الذروة في الزعامة فأنت بركليس ، وإن تبلغ الذروة
في الحكمة فأنت لقمان ، وإن تبلغ القمة في فنون الحرب فأنت نابليون ،
وإن تبلغ الذروة في التشريع فأنت سولون .

أما أن تكون كل هؤلاء ، وأن تمتحنك الأيام في كل صفة فتبلغ
فيها غاية المدى دون مدرسة أو معلم فهو الإعجاز بعينه . . وإذا حدث فإنه
لا يفسر إلا بأنه نبوة ومدد وعون من الله الوهاب وحده .
وهذا هو برهاني على نبوة محمد .

فها أنت ذا أمام رجل إذا تحدث كان أبلغ البلغاء ، وإذا نطق كان
أفصح الفصحاء . . لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن حفيظة ، وإنما عن
حكمة الحكيم وبصر البصير الملمهم . . وهذه أحاديثه المجموعة تشهد لنا
بأنها من جوامع الكلم .

فإذا ذهب هذا الحدث الهادئ ليحارب رأينا فيه مقاتلاً فذاً ومخططاً
عسكرياً من الطراز الأول .

فهذا هو ينظم جيشه في معركة أحد فيضع خمسين من الرماة على شعب
من الجبل في خلفية الجيش المقاتل وهو يقول لهم :

« احموا لنا ظهورنا . . والزموا مكانكم لا تبرحوه ، وإن رأيتمونا ندخل
معسكر العدو فنهزمهم فلا تفارقوا مكانكم . . وإن رأيتموهم يحملون علينا
فيغلبونا ويقتلوننا فلا تدافعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ،

فإن الخيل لا تقدم على النبل .» .

ونعلم الآن أن انكسار المسلمين في أحد كان بسبب مخالفة هؤلاء الرماة لتعليمات الرسول ونزولهم من الجبل لاهتبال الغنائم حينما رأوا فرار الكفار . . فالتف خالد بن الوليد (وكان قائد الكفار في ذلك الوقت) وهاجم جيش المسلمين من الخلف وقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة . فماذا يفعل هذا القائد المهزوم .

إننا نرى صورة أخرى من صور الجرأة وبُعد النظر والمخاطرة الدقيقة المحسوبة . . فما تكاد تمر أربع وعشرون ساعة حتى نراه يجمع هذا الجيش من الجرحى والهللكى ليتبع جيش المنتصرين العائد إلى مكة . . فيقع في روع أبي سفيان قائد الكفار أن محمداً جاء من المدينة بمدد جديد . . ويتنادى الجنود أن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم ير مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه . . وكلهم أشد ما يكون طلباً للنار .

ويبلغ جيش الجرحى حمراء الأسد فيوقدون النيران ثلاث ليال متتابعة موهمين الأعداء أنهم ينظمون أنفسهم لوثبة تقضى على جيشهم . . فتترزعزع همة أبي سفيان وتتضعضع ، وينسحب بجيشه مسرعاً إلى مكة خيفة أن يفقد انتصاره الذى كسبه سهلاً في أحد . .

ويعود الجيش المكسور وقد استرد شيئاً من حميته وكرامته التى أهدرتهاا الهزيمة . . ولا يعرف وزن هذا الكسب النفسى إلا كل عسكري محترف . . هذه العملية الجريئة بكل ما تضمنته من مخاطرة مهلكة تكشف عن مخطط من طراز فريد .

ثم إذا جدَّ الجدد والتهب الموقف نجد هذا المخطط العبقري الذى مكانه

المؤخرة يتحول فجأة ليقف في المقدمة والنبيل والحراب والسيوف تزجر من حوله والموت يحصد الرقاب وهو ثابت كالجبل ، وهذه وقفة النبي يوم حنين . . يوم أمطر الأعداء جيش المسلمين بوابل من النبل من أعلى الجبل في عماية الفجر ، فأنزلوا القوضى والاضطراب في صفوفهم ، فكروا فراراً وقد أطلقوا سيقانهم للريح حتى قال أبو سفيان ساخراً : لن تنتهى هزيمتهم دون البحر . وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحة في شامة : اليوم أدرك تأري من محمد .

فماذا فعل محمد ، وهو يرى انكسار اثني عشر ألف محارب مسلم ، وضياح عشرين سنة من الكفاح ، في غمضة عين ؟ . . لقد ثبت وسط طوفان الأرجل التي تهرول مذعورة من حوله . . وسمّر رجله في الأرض ، وجيش العدو ينزل من أعلى الجبل في ألوف يطارد المسلمين ويجندهم صرعى من يمين وشمال . . والنبي يحاول أن يندفع في وجه السيل الجارف ويحث بغلته البيضاء ، وابن الحارث بن عبد المطلب يردّ خطامها خوفاً على النبي ، والعباس بن عبد المطلب يصيح بصوته الجهورى في الهارين : يا معشر الأنصار . . يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . . إن محمداً حى ، فاهلوا .

ومحمد صامد وسط الموت يصيح : إلى أين ؟ . . إلى أين أيها الناس ؟ . . أنا النبي لا كذب . . اثبتوا . .

وتمر لحظة هائلة بوزن التاريخ كله .

لحظة تتغير فيها المصائر .

وتمسّ القلوب وقفة النبي القائد أمام الموت .

ويعود الهاربون يتصايحون من كل جانب . . . لبيك . . . لبيك يا نبي الله ، ويلوى كل رجل عنان فرسه ليقترحم المعركة وتلتحم الأسنة .
ويذكر الرواة فناء قبيلتين من القبائل المسلمة في هذا الالتحام عن آخرهما وانقلاب الهزيمة إثر ذلك إلى انتصار ساحق . . . وأحصى المسلمون من الغنائم ذلك اليوم اثنين وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من الشاء ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وستة آلاف أسير نقلوا محروسين إلى الجعرانة .

ولتعلم أى نوع من الأعداء انكسر في ذلك اليوم . . . يكفي أن تسمع هذا الحوار الذى دار بين المسلم الذى جرد سيفه ليقطع رقبة عدوه فلم يغن السيف شيئاً . . . فقال الكافر في ثبات وصلف وسخرية .
نس ما سلحتك أملك ! . . . خذ سيفي هذا من مؤخر الرجل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فإني كذلك كنت أضرب به الرجال . . . ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فربّ يوم والله قد منعت فيه نساءك .
كان هؤلاء الأعداء رجالاً كل واحد بألف . . . ولم يكن الإسلام يحارب أشباحاً بل صناديد .

ولم يخف النبي إعجابه بقائد الأعداء مالك بن عوف ، وكان قد هرب بعد الهزيمة ، وتحصّن في حصون الطائف مع بقية من جيشه ، فأرسل إليه رسولا من أهله يبلغه إن أتاه مسلماً أن يرّد عليه السبايا من أهله كما يرد عليه ماله وعليه زيادة مائة من الإبل . . . وما كاد مالك يعلم بهذا الوعد السخى حتى أسرج فرسه خلصة وانسل عائداً إلى النبي ، فأعلن إسلامه ،

وأخذ أهله وماله والمائة من الإبل .

وهنا حنكة السياسيّ الخبير الذي يحاول أن يكسب القلوب والأرواح
لا الرقاب والغنائم . . هنا القائد العظيم الذي يعرف أقدار الرجال ولو
كانوا أعداءه .

ثم ماذا كان موقف محمد من هذا السيل من الغنائم وقد تكالب
عليه المسلمون يتخاطفونه ؟

لقد وقف مغضباً إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين
أصبعيه ثم رفعها وقال :

أيها الناس ، والله ما لي في هذه الغنائم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ،
والخمس مردود عليكم ، ردّوا على ردائي . أيها الناس ، فوالله لو أن لكم بعدد
شجرتهم إبلًا لقسمته عليكم ، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً .
ثم إنه نزل عن نصيبه لهؤلاء الذين كانوا منذ أيام الله أعدائه . .
فأعطى مائة من الإبل أباً سفيان وابنه معاوية والحارث بن كلدة والحارث
ابن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأشرف ورؤساء
العشائر ممن أراد أن يؤلف قلوبهم بعد فتح مكة ، وأعطى خمسين من الإبل
آخرين أقل من هؤلاء شأنًا ومكانة . . مما جعل الأنصار يتهايمسون . سوف
يوزع والله محمد الغنائم على قومه .

وحينما سمع محمد بهذا التهايمس الذي يدور وراء ظهره جمع الأنصار
ليواجههم بهذه المقالة البليغة :

يا معشر الأنصار . . ما هذا الذي سمعته عنكم . . ألم آتكم ضالين فهداكم
الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى والله .

— ألا نجيبونى يا معشر الأنصار ؟

— بماذا نجيبك يا رسول الله ؟

— أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك . . استكثرتم يا معشر الأنصار لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم . . ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله فى رحالكم . . فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت واحداً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

قال النبى هذه الكلمات البليغة فى تأثر ، فبكى الأنصار وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

وبذلك أظهر النبى زهده فى هذا المال الوافر الذى غنم من حنين ، وجعله وسيلة ليكسب به قلوب هؤلاء الذين كانوا منذ أيام كفاراً ، ليروا فى الدين الجديد وسيلة إلى ربح الدنيا وربح الآخرة .

وهنا انتهى بعد النظر والبصيرة بقلوب الرجال وحسن السياسة للجموع المختلفة المصالح والأهواء . ثم ينزل القرآن ليصف هذه المعركة التى انقبلت من هزيمة إلى نصر ، ويكشف بعض أسرارها .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْهَتْكُمْ فَلََمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدِيرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . (التوبة : ٢٥ ، ٢٦)

تلك السكينة التي ثبتت الرسول والمؤمنين كانت مدداً من الله . .
ولقد أنزل مع تلك السكينة جنوداً لم يروها . .

مَنْ هم هؤلاء الجنود ؟

ذلك هو الغيب .

وإن مثل تلك المعركة الهائلة لا يمكن أن يقتنع العقل بتحولاتها السريعة
الفجائية ، دون أن يتصور أن هناك سنداً مجهولاً من الغيب كان يعمل
من وراء حجاب .

ومثلها معركة بدر حينما التقى ثلاثمائة مسلم ، ليس فيهم من عدة الحرب إلا
ثلاثة أفراس وألف من كفار قريش في الحديد والدروع يتقدمهم أكثر
من مائة فارس على خيلهم .

ومحمد يدعو ويتهل ممدود الذراعين إلى ربه : « اللهم هذه قريش
قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . . اللهم فنصرك الذي وعدتني ،
اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .
ولا يزال يهتف بربه حتى سقط رداؤه .

أى عقل يمكن أن يتصور هذه القلة بسلاحها البدائي تهزم هذه الكثرة
في الحديد والدروع دون سند من الغيب .

ويحكي القرآن كاشفاً بعض أسرار هذه المعركة :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ يَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ .
بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ

مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (آل عمران : ١٢٣ - ١٢٦)

وفى موضع آخر :

« إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوَقَّ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ » . (الأنفال : ١٢)

وفى آية أخرى :

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ »
(الأنفال : ١٧)

هذه بعض أسرار الغيب ، وبعض أسرار التأييد الإلهي حين ترتفع
همم القلوب ، ولا تتكافأ القوى المادية بعضها أمام بعض حينئذ يأتي
المدد الخفي ، فيحقق عدالة الله الأزلية من حيث لا ترى العين ولا تسمع
الأذن .

وهذا محمد النبي وقد اجتمعت فيه كمالات بلغ في كل منها
الدروة ، فهو العابد المبتهل الذي يذوب خشوعاً ويفنى حباً ، وهو المقاتل
الصنديد الذي يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم وألوف الأبطال والفرسان
يفرون أمامه كالجرذان ، وهو المخطط العبقري الذي يرسم الخطط فيتفوق
على أهل الحرفة ، وهو السياسي الحاذق الذي يحرك المجاميع ويمسك بمقاليده
المشاعر بمهارة المايسترو المبدع ، وهو المحدث الذي ينطق بجوامع الكلم ،
وهو الأب الزوج والصديق ، وهو صاحب الدعوة الذي يقيم نظاماً وينشئ
دولة من عدم (من قبائل وشرادم متفرقة لا تعرف إلا قطع الطريق والثأر

والتفاخر بالأحساب والأنساب) ، وهو برزخ الأسرار المكاشف بالملكوت الذى يستمع إلى الله وملائكته كما نستمع نحن بعضنا إلى بعض بالغاً بذلك القمة فى علوم الظاهر وعلوم الباطن معاً وفى الوقت نفسه . . وهو الكريم الحليم الدود الرؤوف الصبور الباش البسام اللطيف المعشر ، لا تمنعه الأعباء الجسم من ملاطفة الطفل والوليد فيحمله على كتفه راکعاً وساجداً وقائماً ، ولا من مغازلة زوجته فى حنان . . لا ينضب لعواطفه معين . . وكأنه يستمد من بحر . .

هذه الذات هى المعجزة . .

واجتماع هذه الكمالات فى ذات واحدة معجزة وليست عبقرية . . فالعبقرية هى أن تتفوق فى صفة واحدة وحسب . . أما أن تكون ذواتنا مجمع كمالات فهنا نبوة . . هنا أمر لا يمكن أن يكون إلا بمدد إلهى وعصمة وتوفيق وتمكين وإفاضة ممن عنده كنوز كل شىء . . وهذا بوهائى على نبوة محمد . .

إننا أمام ذات متفردة تماماً ، مستوفية أسباب الكمال ، جامعة لأقصى الأطراف فى كل شىء ، فاعلة منفعة ، نشيطة مؤثرة ، تصنع بطلا من كل رجل تلمسه ، وكأنما لها أثر السحر فى كل ما حولها ثم فيمن بعدها . . ثم فى التاريخ بطول أربعة عشر قرناً . . ثم فيما يستجد بعد ذلك من مستقبل إلى آخر الزمان .

نحن لسنا إذن أمام أبراهام لنكولن ، ولا أمام جيفارا كما تصور أصحابنا قصار النظر دعاة المادية الجدلية ودعاة العلمية بلا علمية . نحن لسنا أمام مصلح اجتماعى . . ولا أمام ثورة إسبارتا كوس الاجتماعية .

لا . . . لقد هزلت تلك التشبيهات .
 بل ظلموا أنفسهم وظلموا نبيهم . . ونقصوه وما قدروه . بل نحن
 أمام ذات . . تسبح وتقدس من أنشأها في الأزل وبعثها للأبد رحمة للعالمين
 وصلى عليها في عليائه ، تمجد وتبارك في آياته :
 « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
 وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (الأحزاب : ٥٦)
 صلوات الله عليك يا محمد . .
 يا رحمة لنا إلى آخر الدهر .



ليست عظمة بَل نبوة





سوف نتمضى نتصفح كتب السيرة وسوف نرى دونما حاجة إلى التدليل الخوارق أننا أمام رجل كان أكثر من مجرد رجل عظيم .

هذا الرجل الفطرى الأسمى البدوى البسيط الذى يسعى بين الناس لا تكلف . . يتكلم فى تلقائية لا يتصنع علماً ولا يتلومني كتاب ولا يتدارس مذهباً ولا يأخذ بأى سبب من أسباب العظمة الدنيوية . . لا جاه ولا لقب ولا شهادة جامعية ولا ميراث مادي .

أى خلط نقع فيه حينما نخلط بين مثل هذا الرجل وبين المفكرين أصحاب المذاهب والدارسين والمتكلفين والعاكفين على الكتب والمتخصصين من حملة الدبلومات والمهيجين السياسيين أصحاب الأغراض والمالكين العظام الذين قلبوا الدنيا وخطفوا أضواء التاريخ لفترة من زمان .
ها هنا شيء مختلف تماماً .

ومن حكمة التدبير الإلهي أن يختار الله لرسالته هذه الفطرة البسطة البدوية ليلقى إليها بكلماته حتى لا تهتم بأنها كانت تأتى بتلك الكلمات اجتهداً .

وإن الكلمات لتأتيه فتغير من كيمياوية جسده تماماً وكأنما هي صدمة قاهرة لا يملك لها دفعا . فيأخذه ما يشبه الغيوبة ويتفصد جبينه عرقاً ويثقل بدنه حتى لتنيخ البعير من ثقله الهائل إذا كان راكباً وهي ترغى .
فإذا انفصم عنه الوحي عاد لطبيعته لفوره دونما أثر من جهد ليتلو على الناس عجباً .

وهو أمر على نقيض الصرع (وهي التهمة التي ألصقها به المستشرقون للحظ من قدره) فالصرع يخرب الجسد ثم يترك الذاكرة ممسوحة تماماً ليس فيها شيء ، والبدن في حالة إعياء تام يسلم صاحبه إلى نوم عميق أو إلى يقظة تختلط فيها النوايا الإجرامية بازدياد الشخصيّة . . هذا ما يعرفه الطب من الصرع . . تخريب كامل لا يعقبه أى نوع من أنواع القدرة وانقطاع لخيطة الحياة مع العجز وفقدان السيطرة على جميع الأفعال والأقوال .

وما كان هذا حال محمد الذي كان مثالا للانباء واليقظة والفتانة واكتمال البدن ، والسلامة من جميع العلل والقدرة النفسية والجسدية على تحمل أضعاف ما يتحمله الرجل العادى من أعباء ، وعلى الإتيان بأضعاف ما يستطيعه الرجل العادى من أعمال . . وكأنه أمة في رجل .

هذا مثال للتفوق والقدرة . . وذلك مثال للعجز وانحطاط القوى . . فأين وجه الشبه ؟

وإننا إذ نمضى في كتب السيرة نتبع هذه الذات المحمدية في فعلها وانفعالها ، وفي أثرها البعيد المستمر في هذا الواقع البدوى الفظ من حولها نراها تأتي من حولها سحراً . . فأیما لمست من إنسان أحواله نورا يمشى على الأرض ، وأيقظت فيه نوازع الخير وفجرت فيه ينابيع المحبة

كيف كان عمر بن الخطاب وكيف أصبح بعد تلك اللمة السحرية .
 ذلك الرجل الغليظ الطبع العنيف الجاد السريع الغضب مدمن
 الخمر واللهو ، وأشد رجال قريش إيذاء للمسلمين ووقعة فيهم .
 لتأمل تلك المشاهد في سيناريو سريع متتابع .
 المسلمون الأولون يعذبون .

بلال العبد الحبشي وقد ألقاه مولاه على الرمل الملتهب لأنه أسلم وألقى
 على ظهره صخرة . . . والعبد يحترق ولا يخرج من فمة إلا كلمات . .
 أحد . . أحد . . أحد . متحملاً العذاب في سبيل دينه ، ويراها أبو بكر
 فيشتريه ثم يعتقه . . ويشترى آخرين كانوا يعذبون مثله . . ويشترى
 جارية لعمر بن الخطاب كانت أسوأ حالا . . امرأة مسلمة تقيد ذراعاها
 إلى الخيل وتترع من أكتافها لأنها رفضت أن ترجع عن إسلامها وتموت وهي
 تنزف .

والمسلمون من غير العبيد يضربون ويُصفعون ويُركلون ويطاردون .
 وزوج أبي لهب تُلقى النجس أمام بيت محمد والشوك في طريقه . .
 وأبو جهل يلقي على ظهره أمعاء شاة مذبوحة وهو يصلي ، ويغري الصبية
 برجم بيته ويغري الشعراء بهجائه .

ويشكو المسلمون ما يجدون من أذى لمحمد صلى الله عليه وسلم فيشير
 عليهم بأن يتفرقوا في الأرض ، فلما يسألون أين . ، ينصح لهم بالذهاب
 إلى بلاد الحبشة المسيحية « فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض
 صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ويتسللون مهاجرين وقد احتملوا متاعهم القليل أحد عشر رجلاً وأربع

نساء يخرجون من مكة فى غلس الليل ليقيموا فى جوار النجاشى .

وعمر بن الخطاب يغلى غضباً ونقمة على هذا الرجل الذى فرق العرب
وشتهم وسفه أحلامهم وسب آلهتهم . . ويبلغه أن محمداً مجتمع بأصحابه
حمزة وأبى بكر وعلى بن أبى طالب فى بيت عند الصفا فيخرج متوشحاً بسيفه
وقد استقر رأيه على قتل محمد لتستريح قريش وتعود إلى وحدتها فيلقاه نعيم
ابن عبد الله فى الطريق ويعرف نيته فيقول له ناصحاً .

« والله لقد غشتك نفسك من نفسك يا عمر . أترى بنى عبد مناف
تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمداً . . أفلا ترجع إلى أهل
بيتك فتصلح من أمرهم » ؟ !

مشيراً بذلك فى سخرية إلى أخت عمر فاطمة وزوجها سعيد بن زيد
اللذين أسلما .

فلما عرف عمر خبرهما عاد مسرعاً ليقترحم عليهما البيت فإذا عندهما
من يقرأ القرآن . . . فلما أحسوا دخوله أخفت فاطمة الصحيفة .
وقال عمر مغضباً وهو يتلفت . . ما هذه الهيمنة التى سمعت . . فلما
أنكرا صاح بهما .

لقد علمت أنكما تابعتما محمداً على دينه .
ولطم سعيداً فلما قامت فاطمة تدفع عنه شج رأسها . . إذ ذاك صاح
الزوجان :

نعم أسلمنا فافعل ما بدا لك .
واضطرب عمر وهو يرى الدم يسيل على وجه أخته . . ولانت ملامحه
وأخذته بادرة عطف وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة .

وبسطها ليقراً تلك الكلمات النورانية الحانية « طه . . مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ
الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . . إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى . تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ
الْعُلَى . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى » .

(طه : ١ - ٦)

ويتسلل النور إلى قلبه حتى أعماق الأعماق . ويغمغم وعيناه تدمعان . .
والله إنه لكلام جميل .
ويخرج إلى حيث كان محمد وأصحابه عند الصفا فيستأذن ويعلن
إسلامه .

وما حدث لعمر بعد ذلك وكيف أصبح يعرفه التاريخ بما لا يحتاج
إلى بيان .

تلك هي اللمسة السحرية التي تشق البحر وتحيل العصا ثعباناً وتشقى
الأبرص وتحيي موات النفوس وتبدل الحال غير الحال .
وقد أتى الله نبيه تلك القدرة المذهلة على تغيير الرجال وصهر معادن
النفوس وإعادة سبكها في أحلى الصور .

ولهذا أحبه أصحابه وافندوه بالمهج والأرواح ، فقد رأوا نفوسهم تولد
بين يديه وكأنهم كانوا عدماً فأحياهم .

وهذه قصة يوم الرجيع تحكى طرفاً من هذا الحب العجيب .
وكان ذلك بعد انكسار المسلمين في أحد وقد حرك هذا الانكسار
شامة الشامتين وأيقظ الأضغان النائمة ، فجاء رهط من العرب يقولون
لمحمد . . إن بين عشائرتنا من يريد أن يسلم فابعث معنا نفرًا من أصحابك

يعلموننا شرائع الإسلام ويقرئوننا القرآن . . فأرسل معهم ستة من كبار الصحابة ، فلما ابتعد الركب وبلغ ماء هذيل بناحية تدعى الرجيع انقلب العرب وغدروا بأصحاب محمد ، واستصرخوا بأعوان لهم من هذيل فانقضوا عليهم بالسيوف في أيديهم ، فأخذ المسلمون أسيافهم ليدافعوا عن أنفسهم فقال رهط هذيل . إنا والله ما نريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم مكة .
هى إذن مصيبة أشد من القتل فإنهم يريدون يبيعهم أسرى فى مكة لتمثل بهم قریش شرملة .

لا والله إن الموت لأهون .

وقاتل المسلمون فقتل منهم ثلاثة . . ورجم العرب المسلم الرابع حتى الموت ، وأخذوا الاثنين الباقيين أسيرين مكبلين بالسلاسل إلى مكة ، وهناك باعوهما رقيقاً . . فكان زيد بن الدثنة من نصيب صفوان بن أمية الذى اشتراه ليقتله ثأراً لأبيه أمية بن خلف ، « الذى قتله المسلمون فى بدر » ، فدفع به إلى مولاة نسطاس ليقتله فلما قدم للموت سأله أبوسفيان :

أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك . . ؟

قال زيد :

والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى .
فعجب أبوسفيان وقال :

ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً .

وقتل نسطاس زيدا فذهب شهيد الحب والإيمان والوفاء .
 أما الأسير الثاني « خبيب » فحبسوه ثم خرجوا به ليصلبوه فقال لهم :
 ن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا . . فتركوه فركع ركعتين
 تمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم قائلاً :
 - أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزءاً من القتل لاستكثرت
 من الصلاة .

ورفعوه إلى خشبة فلما أوثقوه نظر إليهم بعين تقدر شرراً وصاح مغضباً :
 اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .
 فأخذتهم الرجفة من صيحته واستلقوا على جنوبهم حذراً من أن تصيبهم
 لعنته ثم قتلوه .
 وكان في إمكان الأسيرين أن يفتدوا حياتهم بالارتداد عن الإسلام . .
 ولكنه الإيمان واليقين والحب للدين وصاحبه ولوجه الله الذي تهون في
 سبيله الدنيا بما فيها .

وإننا لنسمع عن ذلك الحب من عروة بن مسعود الثقفي وكان سفيراً
 لقريش عند محمد في مفاوضات الحديبية . . فلما رجع من سفارته حدث
 عن أمر محمد وأصحابه قائلاً :
 يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقبصر في ملكه ،
 والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في
 أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ،
 وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً .

وليس هذا عن غرام من محمد بالتعظيم وإنما عن حب وفداء ، وقد

عرف محمد بالتواضع وكان يقول لأصحابه :

لا تقوموا لى كما يقوم الأعاجم يعظمون بعضهم بعضاً وكان يقول لهم :

لا تعظمونى كما عظمت النصارى ابن مريم .

وكان يعلمهم كيف يكون الجلوس للطعام فيقول :

إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد ، ليتعلم المسلم كيف يجب أن تكون جلسته للطعام متواضعة لأنه يتلقى النعمة من ربه .

وقال للأعرابى الذى أخذته الهيبة من محضره .

هون عليك إنما أنا رجل من قريش كانت أمه تأكل القديد . . لم يكن التعظيم إذن هو حافز الأصحاب بل الحب والاحترام والثقة ، ثم هذه اللمسة السحرية من وراء الغيب فيما ألقى له الله من محبة فى قلوب الناس .

ألم يقل الله لموسى :

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» (طه : ٣٩) ،

فتحرك لموسى قلب فرعون حيناً رآه وليداً فى المهد وهو الذى أمر بذبح جميع الأطفال والولدان .

هنا سند الغيب والتوفيق والتمكين من الله لنبه فى الأرض وفى التاريخ وفى قلوب هؤلاء البدو الجفاة الغلاظ الذين يتدون بناتهم أكبادهم ويدفنونهم أحياء فى التراب .

ويدون هذا السند الإلهى لا نستطيع أن نفسر أموراً ووقائع كالخيال .

ماذا جرى يوم مؤتة .

لقد تلقى المسلمون أمراً من الرسول بالزحف إلى الشام لتأديب القبائل

غادرة التي كانت تهاجم السرايا التي يبعث بها لنشر الدين .
 وخرج المسلمون في ثلاثة آلاف . . على رأسهم زيد بن حارثة .
 وقال لهم الرسول . . إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس
 إن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحه على الناس .
 وخرج الجيش ومعه خالد بن الوليد متطوعاً ليظهر حسن بلائه وكانت
 ملك أول معركة له بعد إسلامه .

وأسرعوا يغزون السير ليدهموا أهل الشام على غرة على عادة النبي في
 غزواته ، ولكن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم إلى شرحبيل عامل الروم ،
 فأخذ يجمع الجموع ويستنفر القبائل . . . وطلب مدداً من هرقل فأمدّه
 بجيش كبير ، وبلغ الجمع مائة ألف بقيادة تيودور أخى هرقل .
 ولما بلغ أمر هذا الجمع أسماع المسلمين لبثوا ليلتين يفكرون وقال قائل . .
 نكتب للرسول فيمدنا بالرجال أو يأمرنا بالعودة . . وكاد هذا الرأي يسود
 لولا عبد الله بن رواحة وكان فارساً وشاعراً يتقن صنعة القول فقام فيهم
 هاتفاً :

يا قوم والله إن التي تكروهن لهى التي خرجتم تطلبون . . الشهادة . .
 وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى
 أكرمنا الله به . . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة .
 وامتدت عدوى الحماسة إلى الجيش . . فقال الناس :

صدق والله ابن رواحة .

ومضوا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب
 فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وتحصنوا فيها . . وفي مؤتة بدأت معركة حامية

بين مائة ألف وبين ثلاثة آلاف مسلم .

حمل زيد بن ثابت راية النبي واندفع بها في شجاعة أسطورية يقتحم موتاً محتماً ، وظل يقاتل في استماتة حتى مزقته حرايب العدو ، فتناول الراية من يده جعفر بن أبي طالب وكان شاباً وسيماً في الثالثة والثلاثين ، وقاتل جعفر بالراية حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها ، واندفع بنفسه وسط الجيش اللجب يهوى بسيفه على الرؤوس حيثما وقع ، وكان اللواء يمين جعفر فقطعت فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، ويقال إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعتة نصفين .
فلما قتل جعفر أخذ الراية ابن رواجه ثم تقدم بها متردداً يشجع نفسه بأبيات من الشعر :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ
لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتَكْرِهَنَّ
إِنْ أَجَلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّهَ
مَالِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ .

ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل .

وأخذ الراية كابت بن أرقم فقال . . يا معشر المسلمين . . اصطلمحوا على رجل منكم . . قالوا أنت . . قال . . ما أنا بفاعل .

فاصطلمح الناس على خالد بن الوليد .

فأخذ خالد الراية مع ما رأى من تفرق صفوف المسلمين وتضعضع قوتهم المعنوية . . وكان خالد محارباً فذاً من الطراز الأول .
واقترح خالد الصفوف .

وقال الذين شاهدوه إنه كان يمرق بينها كز وبعة فتفسح له الجند رعباً ،
 فما يكاد يخرج من حملته حتى تكون قد تجندلت رءوس على الجانبين .
 وظل خالد ينقض ويداور حتى تكسرت في يده تسعة سيوف .
 وأمسكت الجموع أنفاسها رهبة .
 واستمرت المناوشات حتى الليل . . وفي أثناء ذلك رسم خالد خطته . .
 فوزع عدداً كبيراً من جنوده في خط طويل بالمؤخرة لتحدث جلبة شديدة
 وضوضاء إذا أصبح الصبح ليقع في وهم العدو أنه قد جاء مدد من عند
 النبي .

وكان هذا هو ما تبادر إلى ذهن الأعداء بالفعل ، فتقاعدوا عن الهجوم
 وتلبثوا يحسبون للقتال ألف حساب . . وقد رأوا ما فعلته بهم حفنة قليلة من
 الرجال . . فماذا يكون الحال لو أن كل المسلمين كانوا من مثل هذا المعدن . .
 وماذا هم فاعلون وقد جاءهم المدد .
 وأسعدهم أن جيش المسلمين لم يهجم بدوره ثم أراحهم أكثر أنه بدأ
 ينسحب عائداً إلى المدينة فلم يتعرضوا له بسوء .
 وكانت هذه خطة خالد للانسحاب بثلاثة آلاف مقاتل من وجه مائة
 ألف في كرامة .

ولكن القصة كانت لها بقية أكثر إدهاشاً فهذا هو عروة بن عمر الجذامي
 وكاف عربياً نصرانياً وقائداً لفرقة من جيش الروم ، وقد افتتن افتناناً
 شديداً بهؤلاء الصناديد الذين رأهم يقاتلون كالجن وقال في نفسه . . لا بد
 أن يكون هؤلاء المسلمون على حق . وما لبث أن أسلم وأعلن إسلامه فقبض
 عليه بأمر هرقل بتهمة الخيانة ، وخيره الروم بين الإعدام أو الإفراج إذا هو عاد

إلى المسيحية بل وعدوه أكثر من ذلك برده إلى قيادته في الجيش فرفض عروة وأصر على إسلامه فقتل .

وكان من أثر ذلك أن انتشر الإسلام في القبائل المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم في ذروته .

ودخل في الإسلام على هذه السمعة ألوف من قبائل أشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة . . وألوف من قبائل سليم على رأسهم عباس بن مرداس .
والمسألة تحتاج إلى وقفة تأمل ، فإذا قلنا إن هؤلاء الصحابة العظام الذين أبلوا هذا البلاء قد خرجوا من مصنع محمد فما بال عروة والباقيين ، إلا أن نقول إن هؤلاء الرجال الذين أشعت عليهم روح محمد العظيمة قد أصبحوا بدورهم قادرين على الإشعاع والتأثير في الآخرين ، والآخرين بدورهم قادرين على التأثير في غيرهم . . وكأنما ذلك القبس قد أصبح ينتقل من يد إلى يد « كما يقول الصوفية في لغتهم إن الواحد منهم يأخذ القبضة عن شيخه فإذا اكتملت نفسه أصبح في استطاعته أن يعطى القبضة لمريديه وهكذا » .

وأيًا كان التفسير فإنك إذا أخذت تحسب بالورقة والقلم كيف حدثت هذه الأمور ، واستعنت بالعقل الإلكتروني وكافة وسائل الحساب الحديثة فإنك لا تستطيع أن تفسر كيف أن فردًا واحدًا مضطهدًا مطاردًا يؤثر هذا التأثير في أفراد قلائل يعدون على الأصابع . . ثم يؤثر هؤلاء في كثرة من مئات ثم ألوف تهزم الروم ثم الفرس « وكانتا دولتين كأمریکا وروسيا في ذلك الوقت » يحدث كل هذا في سنوات معدودة . . وابتداء من الصفر ومن بداوة مطلقة ومن عرب مشرذمين في قبائل تقتل بعضها بعضًا بلا حضارة

وبلا علم يذكر . . وإنك لن تصل أبداً في حسابك إلى تلك النتيجة الهائلة وستظل المعادلة ناقصة حتى تدخل فيها ذلك العامل الخفي . . عامل الغيب . . وسند المدد الإلهي من التمكين والتوفيق .

ماذا قال الله في القرآن عن القائد المنتصر ذي القرنين الذي سار من

مطلع الشمس إلى مغربها :

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا » (الكهف :

٨٤) هذا التمكين وإيتاء الأسباب التي تنداعى إلى نتائجها سبباً تلو بسبب من عند مسبب الأسباب الذي بيده مقاليد كل شيء . . هو السر المحجب وراء كل نجاح .

وليس هذا التفكير من باب اللا معقول . . بل هو من باب المعقول ذاته . .

فالعقل يفترض هذا العامل المجهول وإن لم يره .

نحن إذن أمام نبوة مؤيدة بسند الغيب ورجل انعقد له لواء التمكين الإلهي . . ولسنا أمام مصلح اجتماعي أو صاحب ثورة أو عظيم من عظماء الدنيا يعمل بالاجتهاد والعلم الكسبي .

رأينا شواهد ذلك من أثر هذه النفس المحمدية المشعة في النفوس من حولها . ثم أثرت تلك النفوس في غيرها حيث يجرى التبديل والتغيير بأسلوب درامي مذهل . وتعالوا ندخل إلى نطاق أكثر خصوصية في حياة محمد . . في علاقته بنسائه . . لنجتلي هذا الأثر المشع للذات المحمدية بطريقة أوضح . . . ولنختر واحدة من نسائه على وجه التحديد هي صفية بنت زعيم اليهود في شبه الجزيرة العربية وأعدى أعداء محمد . . حيي بن أخطب

وسوف يدعوننا هذا إلى رواية قصة حرب النبي مع اليهود من بدايتها . .

روح مشعة أسرة





ونحن في حرب النبي مع اليهود أمام ملحمة مثيرة تعددت فصولها على مدى عشرين عاماً من السيرة النبوية .

ونحاول أن نسترجع ماجرى في شريط من المشاهد المتتابعة .

هذا أبوبكر يتحدث في وداعته وذمائه المعهودة إلى اليهودي فنحاص يدعو إلى الإسلام فيجيب فنحاص :

والله يا أبا بكر مانحن بفقراء إلى الله وإنه إلينا لفقير . . . ومانتضرع إليه بل هو الذي يتضرع إلينا وإننا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى . . . ولو كان إلهكم غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم محمد . . . ينهانا عن الربا ثم يستقرضنا أموالنا لنفسه بالربا .

يشير بذلك إلى قول الله في القرآن :

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »

(البقرة : ٢٤٥)

ويلطمه أبوبكر على وجهه قائلاً في غضب :

والله لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك ياعدو الله . ويشكوه

إلى النبي فينكر فنحاص قوله . . . فينزل القرآن :
 « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا
 وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ »
 (آل عمران : ١٨١)

ويحاول اليهود الدس والوقعة بين طوائف الأوس والخزرج من المسلمين
 ليشعلوها فتنة ، ويدعى بعضهم الإسلام ثم يمضى يدس في الإسلام مالميس
 فيه . . . ويحاول بعضهم ضرب الإسلام بالجدل وإثارة الشكوك ومحاصرة
 المسلمين بالأسئلة . . . مالله . . . ما الروح . . . إذا كان الله خلق
 الخلق فمن خلق الله . . . فإذا التحم المسلمون بقريش في غزوة بدر
 أشاعوا أن محمداً قتل . . . فإذا انتصروا ذهب الشاعر اليهودى كعب
 ابن الأشرف إلى مكة يتباكى وينشد المراثي في قتلى المشركين ويحرض العرب
 ويستنفر القبائل على محمد .

وكان محمد عليه الصلاة والسلام قد أخذ على اليهود عهداً بالسلام
 والموادعة فلما لجؤوا في حربهم على الإسلام وأرسلوا بعضهم إلى محمد يقولون
 له بعد انتصار بدر .

« لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم
 فرصة . . . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » .

حينذاك لم يبق لمحمد إلا القتال فحاصرهم في قينقاع خمسة عشر يوماً
 لا يدخل عليهم أحد بطعام حتى لم يبق لهم إلا التسليم والنزول على شروط
 محمد . . . فحكم عليهم بالجللاء عن المدينة تاركين وراءهم سلاحهم
 ومهاجرين إلى أذرعات بالشام .

ثم يأتي بعد ذلك إنكسار المسلمين في أحد وتحرك يهود بني النضير للمؤامرة على محمد والخلاص منه بالقاء حجر عليه وهو جالس يفاوضهم وقد أسند ظهره إلى حائط في محلهم .

ويقوم محمد قبل لحظة من تنفيذ المؤامرة ليعث إليهم برسول معه كتاب . . أن اخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم بالغدر بى لقد أجلتكم عشراً فمن رضى بعد ذلك ضربت عنقه .

لكنهم يتلكنون بتحريض من عبد الله بن أبى بن سلول بأنه ناصرهم وتنقضى الأيام العشرة ولا يخرجون من ديارهم فيأخذ المسلمون سلاحهم فيقاتلونهم عشرين ليلة ويقطعون نحيلهم ويحرقونه . . ويتنظر اليهود نصر ابن سلول فينكت وعده فيسألون محمداً الأمان على الأموال والدماء والذرية حتى يخرجوا من المدينة فيصالحهم محمد على أن يخرجوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ماشاءوا من مال وطعام وشراب وليس لهم غيره فيخرجون وقد خلفوا وراءهم مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً غير الأرض التى جعلها الرسول ملكاً عاماً للمهاجرين وفقراء المسلمين .

ويمضى زعيمهم « حبي بن أخطب » يؤلب العرب على محمد ويستنفر قريشاً وغطفان وبني مرة وبني فزارة وأشجع وسلياً وأسدأ وكل منهم له عند المسلمين ثأر فيجتمعون فى عشرة آلاف مقاتل ويخرجون إلى المدينة فى غزوة الأحزاب .

ويحفر محمد الخندق بينه وبين المهاجرين مطمئناً إلى أن ظهر المسلمين يحميه عهد المودعة بينه وبين يهود بني قريظة فى المدينة ولكن حبي ابن

أخطب يفرى إخوانه يهود بنى قريظة بنقض العهد مع محمد . . ويقول
لزعيمهم كعب بن أسد وقد رآه متردداً :

ويحك يا كعب . . جئت بكعز الدهر وبيحر طام جئت بك بقريش
وغطفان مع قاداتها وساداتها ، وقد عاهدوني وعاهدوني على ألا يرحوا حتى
نستأصل محمداً ومن معه .

ويصف له قوة الأحزاب وعددها وعدتها وأنها لم يمنعها إلا الخندق
ولولا ذلك لقصت على محمد في سوية .

ويتردد كعب لحظة سائلاً ؟

وماذا لو ارتدت الأحزاب وتركنا لانتقام محمد فيجيبه حي بن أخطب
وهو يشد على يده حينذاك أدخل معكم حصونكم فأشارككم حطكم . .
وتتحرك في نفس كعب يهوديته فينقض عهده مع المسلمين ويخرج عن حيدته .
ويبعث إليه محمد يتشمم الأخبار ويقف على جليلة الأمر فيرد عليه
مغلظاً . . لاعهد بيننا وبينكم ولا عقد . . ويسب محمداً سباباً
فاحشاً .

ويشتد أزر الأحزاب ويرسلون ثلاث كتائب تنحط على المسلمين
كالسيل . . كتيبة ابن الأعور السلمي من فوق الوادي وكتيبة عيينة بن
الحصن من الجنب وحشود أبي سفيان من قبل الخندق .

وفي هذا الموقف الرهيب تنزل الآيات :

« إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْفِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا
شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَسْأَلُ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا »
(الأحزاب : ١٠ - ١٣)

ويبلغ الفرع بالمسلمين كل مبلغ .
ويتهامس بعضهم . . كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر
وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .
ويلتمس بعض الفوارس من قريش ثغرة في الخندق فينقضون منها
ويسرع على بن أبي طالب في نفر من المسلمين فيأخذ عليهم الثغرة ويلتحم
بقارس فرسان قريش عمرو بن عبد ود وتدور مبارزة رهيبة يفلق فيها على
هامته بضربة سيف .
ويحاول نوفل بن عبدالله بن المغيرة أن يقتحم الخندق بقفزة من فرسه
فيهوى مع فرسه ويتحطم .
وتغرب الشمس والمسلمون يضعون أيديهم على قلوبهم وقد أصبحوا
جزيرة معزولة يحيطها العدوان من كل جانب . . اليهود من خلف والعرب
من كل مكان ألوفاً مؤلفة في الدروع والحديد .
وهنا يتفتق ذهن نعيم بن مسعود عن حيلة مأكرة (ولم يكن اليهود يعلمون
أنه أسلم) فيذهب إلى اليهود ويخوفهم غدر الأحزاب وأنهم لن يقيموا على
حصارهم طويلاً ويقترح عليهم أن يأخذوا رهائن من جيش الأحزاب يكونون
بأيديهم ليقاتلوا محمداً وهم آمنون إلى أن قريشاً وغطفان لن تخذلهم .
ثم يذهب متسللاً تحت جناح الظلام إلى قريش ليقول لهم محذراً غدر
يهود إنهم سيطلبون رهناً بحجة الاطمئنان وفي الحقيقة بهدف تقديم هذه

الرهن إلى محمد ليضرب أعناقهم ندماً على ما كان من نكثهم لعهدده .
ويأخذ الشك بقلب أبي سفيان ويبحث إلى يهود بني قريظة يتعجل القتال . . . فيتعلل هؤلاء بيوم السبت ويطلبون رهناً ليطمئنوا فلا يبقى لديك شك في كلام نعيم . . . ويتحدث إلى غطفان فإذا هي مترددة في الإقدام على القتال (طمعاً في ما وعدها به محمد من إعطائها ثلث ثمار المدينة إن هي لم تظاهر على قتاله) .

وتهب عاصفة ثلجية باردة ويهطل المطر غزيراً ويقصف الرعد ويلمع البرق وتشتد الرياح فتقلع خيام الأحزاب وتكفأ قدورهم ويخيل إليهم أن المسلمين منقضون عليهم وينادى أبوسفيان :

يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . . . لقد هلك الكراع والخف ونقض بنو قريظة العهد وبلغنا منهم مانكره ولقينا من شدة الريح ماترون فارتحلوا إلى مرتحل . . . وينادى طليحة بن خويلد . . . النجاة .
النجاة . . . إن محمداً قد أرادكم بشر .

ويصبح الصبح وقد فر العرب عائدتين إلى مكة وخلت الساحة إلا من المسلمين واليهود وجهاً لوجه .

ويضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلة فلا يجد اليهود بداً من التسلل ويختارون سعد بن معاذ الأوسى حكماً (وكان حليفاً قديماً من حلفائهم) فبأمرهم أن يضعوا السلاح فيفعلون فيحكم بقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء .

ويحفر المسلمون الخنادق ويحيثون باليهود أرسالاً فيضربون أعناقهم ويدفنونهم . . . وأول من تضرب عنقه على النطع رأس « حي بن أخطب »

ولا يبقى من قلاع اليهود حول المدينة إلا خير ذات الحصون المنبعة . .
أقوى الطوائف اليهودية بأساً وأوفرها مالاً وأكثرها سلاحاً . . ومصدر
التهديد المستمر للدعوة من الشمال .

ويخرج محمد في ألف وسبعمائة مقاتل بعد شهر من صلح الحديبية
(الذى أمن به غدر قريش في الجنوب لثلاث سنوات) طالباً
خير . . وهو ينادى : الله أكبر خربت خير . . إنا إذا نزلنا
بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

ويدور القتال شديداً مريراً أمام الحصن الأول ويبعث النبي أبا بكر
إلى الحصن فيقاتل طوال يومه ثم يعود دون أن يفتحه فيبعث الرسول بعمر
ابن الخطاب فيكون حظه كحظ أبي بكر فيدفع على بن أبي طالب وفي يده
الراية . . فيمضى على الراية فيلتحم باليهود في مبارزة حامية فيضربه رجل
من اليهود فيطرح ترسه من يده فيختطف على باباً كان عند الحصن فيتترس به
ولم يزل يقاتل وهو في يده حتى يفتح الحصن ويجعل من الباب قنطرة يدخل
عليها المسلمون إلى الداخل .

ويسقط الحصن الأول بعد قتل قائده الحارث بن أبي زينب ومن قبله
القائد سلام بن مشكم .

ويدور القتال شديداً أمام الحصن الثاني ويشح الطعام ولا يجد المسلمون
مأياً كلون ويأذن لهم النبي بأكل لحوم الخيل ويخرج «مرحب» أحد فرسان
اليهود يرتجز شعراً :

قد علمت خير أنى مرحب

شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب

فيتصدى له ابن مسلمة ويتبارزان ويكاد مرحب أن يقتله لولا أن يتقى
مسلمة سيفه بالدقة فيقع السيف فيها فتعض عليه فتمسكه فيضرب ابن
مسلمة غريمه الضربة القاتلة .

ويتقدم المسلمون شبراً شبراً وهم يتبارزون رجلاً لرجل حتى تقع جميع
الحصون فيطلب اليهود الصلح بعد أن غنم النبي كل أموالهم فيقيهم على
أرضهم على أن تؤول للمسلمين بحكم الفتح ويكون لليهود ثمارها بحكم العمل .
وبعد توقيع الصلح تهدى زينب بنت الحارث (زوجة قائد اليهود القاتل
سلام بن مشكم وبنت القائد الآخر القاتل الحارث) النبي شاة مسمومة وقد
علقت غرامه بأكل زبد الشاة ويتناول منها الرسول مضغاً فلا يسيغها ويلفظها
قائلاً . . هذا العظم يخبرنى أنه مسموم ويأكل منها بشر بن البراء ويموت
مسموماً ويدعو النبي زينب فتعترف قائلة :

لقد فعلت بقومى مالا يخفى عليك فقلت لنفسى إن كان ملكاً استرحنا
منه وإن كان نبياً فسيخبره وحيه .

فعفا عنها النبي وقدر ما أصابها في أبيها وزوجها .

وفى هذه المعركة وقعت صفية بنت حيى بن أخطب سبياً فأخذها النبي
زوجة له (وهو فى عرف ذلك الزمان ترضية عظيمة أن يأخذ المنتصر ابنة
المغلوب زوجاً ، لا سبياً) .

وأمسك المسلمون أنفاسهم . . فهذا النبي ولم يكد ينجو من مكيدة
الشاة المسمومة يأخذ صفية زوجاً وأبوها حيى بن أخطب أول من ضرب عنقه

على النطع وقومها مجندلون صرعى بسيوف المسلمين ، ومن قبل كانت في بني قريظة حرب إبادة . . فكيف يأمن على نفسه أو يأمن المسلمون عليه هذه المرأة .

ومن هي صفية .

إنهم يقولون إن نسبها ينتمى إلى النبي هارون أخى موسى وإنها امرأة ذات إباء وكبرياء ولاتنسى الضيم . . وهذا زوجها كنانة بن الربيع لم تكد تمضى ساعات على قتله أمام حصون خيبر .

وبيت أبو أيوب خالد بن زيد أمام خيمة العرس ساهراً متوشحاً سيفه . . حتى إذا أصبح الصبح رآه النبي يطوف بالخيمة فيقول له :

مالك يا أبا أيوب

فيقول الرجل :

يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة لقد قتلت زوجها وأباها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .

فيدعو له الرسول :

اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

وقارئ السيرة يقف حائراً مأخوذاً أمام هذا الزواج .

كيف يمكن أن تنمو المودة والرحمة عبر هذه الأضغان والمواجلا . . ! ! ؟
وكتب السيرة تجمع كلها على أن صفية أحبت الرسول وأن الرسول أحبها وأنه كان يدفع عنها كيد حفصة وعائشة حيناً يدعوانها باليهودية فتأني إليه باكية فيمسح دموعها قائلاً . . بل تقولين لهما . . كيف تكونان خيراً منى وأبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد .

وفى مرض الرسول نراها تقف على فراشه هامسة فى دموعها :

- وددت والله يانبي الله أن الذى بك بى .

فتتغامز زوجات النبي فيقول لهن الرسول :

- مضمضن .

فيتسائلن فى دهشة :

- من أى شىء ؟

فيقول الرسول :

- من تغامزكن بها . . والله إنها لصادقة .

ويموت النبي ولو كان فى قلبها ضغن لأظهرته حينما انقسم المسلمون
وظهرت الفتنة وتآمر الناس على عثمان بن عفان . . ولكنها كانت أول
من سارع إلى عثمان لترد عنه فلقبها الأشر وهى فى حجابها على بغلتها فضرب
وجه البغلة وهو لا يعرف راكبها فصرخت به صفيه :

- ويحك . . ردنى ولا تفضحنى .

وتروى كتب السيرة أنها أقامت جسراً بين منزلها وبين بيت عثمان لتبعث
إليه بالطعام وهو محاصر .

إنها لم تحب النبي فقط بل أحبت الدين وافتدته إلى النسمة الأخيرة
من عمرها .

وهنا يقف القارئ المتأمل لاهث الأنفاس متسائلاً وكيف . . كيف
استطاع حبها أن يعبر ذلك البحر من الدم وأن يتغلب على يهوديتها وعنصريتها
وارتباطها بقومها وأهلها الذين سقطوا بسيف الإسلام ويد محمد .

هنا لا تجد جواباً . . إلا . . محمد . . وروحه المشعة الآسرة

وقلبه الطيب النبيل . . . وتلك القوة القاهرة وذلك المدد الإلهي الذي أمده الله به يغزو به قلوب أعدائه فيطهرها من الشر والغل ويستصفي منها أحلى ما فيها . . . هنا النبوة هي التي تفسر لا العظمة فنحن أمام قدرة غير بشرية . وحكاية صفية تدحض التهمة التي اتهم بها النبي في أن علاقته بزوجاته كانت شهوة وأن زواجه من تسع زوجات كان شهوة . . . فالشهوة لا تطهر النفوس أبداً بل تزيدها ظلاماً . . . إنما نحن أمام مودة ومروءة وحنان ورأفة . . . وما كان زواج محمد بزوجاته إلا عطاء للمودة وتحملاً للأعباء ، فكان يضم الواحده ومعها عيالها وكلهن كن متزوجات ماعدا عائشة . . . فأى حمل وأى أعباء ، وإن الواحد منا ليعانى من إزعاج امرأة واحدة وعيالها فيضيق صدره ويخرج عن صوابه فما بال هذا القلب يسع تسع زوجات بعيالهن وغيرتهن ومكائدهن وإزعاجهن ومطالبهن المتناقضة . . . أين الشهوة هنا . . . إنه بلاء وابتلاء لهذا القلب وامتحان لعطائه السخي الذي لا ينفد وللحلم والصبر والوداعة والبشاشة في تلك النفس الكريمة التي لا يعرف الغضب لها سبيلاً .

ودعونا نقف أمام هذه النفس المحمدية الصافية في لحظة أخرى هائلة حينما نزل القرآن مؤكداً نفاق عبدالله بن أبي بن سلول ووقعته بين الأوس والخزرج وفتنته بين المهاجرين والأنصار إذا يقول ابن سلول :

لقد كاثرت المهاجرون في ديارنا والله ما أحسبنا وإياهم إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك . أما والله لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم قال لمن حضر من قومه . . . هذا ما فعلتم بأنفسكم . . . أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم . أما الله لو أمسككم عنهم لتحولوا إلى غير دياركم .

وهي فتنة كان من الممكن أن تنسف البيت الإسلامى كله .
ونزل القرآن مؤكداً هذه الفتنة . . فأيقن الكل أن محمداً لا بد
مصدر أمره بقتل ابن سلول . .

فأسرع ولده عبدالله إلى النبي قائلاً :

يا رسول الله إن كنت فاعلاً ذلك بأبى فمرنى به وأنا أحمل إليك
رأسه . . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ،
وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله . . فلا تدعنى نفسى أدع قاتل
أبى يمشى فى الناس فاقتله فاقتل رجلاً مؤمناً بكافراً فأدخل النار .
فبماذا أجاب النبي أمام هذا القلق النبيل بين حب الابن لأبيه وجهه
لدينه لقد أجاب فى هدوء :

لا يا ولدى . . إنا لانتقله بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .
ولقد فعل النبي أكثر من ذلك . . فلما مات ابن سلول كفنه
فى قميصه وصلى عليه ، واستغفر له . . فلما روجع فى ذلك . . قال
فى حزن والله ما يغنى عنه قميصى من الله شيئاً . . والله لو علمت أن
استغفارى له أكثر من سبعين مرة ينجيه لاستغفرت له .

فمن يكون هذا إلا نبياً .

صلوات الله عليك يا محمد .



مستيرة كالإعصار





دعوة الإسلام هي القمة في البساطة . . إنها الفطرة ذاتها بلا تكلف . .
 لم يأخذ محمد عليه الصلاة والسلام الناس إلى متاهات لاهوته ولم
 يكلفهم انقلاباً في نظام الحكم في قريش وإنما أراد بهم إن يطهروا عقولهم
 من رجس الخضوع للأوثان وأن ينزهوا ربهم عن هذه الشركة المخجلة مع
 أصنام لا تسمع ولا ترى وهذه الشفاعة الوهمية لحجارة شائهة لا تملك
 لنفسها شيئاً .

كانت دعوته في صميمها حرية وتحراً فلا تلك الحجارة ولا الملائكة
 ولا الجن ولا المردة ولا النجوم بدافعة عن الإنسان ضرراً أو جالبة له نفعاً
 فعليه أن يتحرر منها جميعاً ويطرحها خلفه لا يضرب عندها قداحاً ولا
 يذبح قرباناً ولا يدعو ولا يعتذر ولا يتوسل ولا يعبد إلا إلهاً واحداً ذلك
 الذي ليس كمثله شيء .

وكانت دعوته علمية ففكرة الإله الواحد هي غاية ما يصل إليه
 التأمل الحق في ظواهر الوجود ، فكل الأسباب تنتهي في النهاية إلى سبب
 واحد هو محركها جميعاً .

وكانت دعوته خلقية تهدف إلى الخير والعدل والمحبة وتدعو إلى نجدة
الفقير والمريض واليتيم والأرملة .

وكانت المرأة في أوروبا في ذلك الوقت يضع رجلها على بطنها حزاماً
حديدياً له ترباس هو حزام العفة ليضمن وفاءها وكأنها قطعة أثاث .
وكانت في الجاهلية تدفن في التراب طفلة وتباع كالمئاع كبيرة وكانت في
الهند تحرق على جثة زوجها الميت فجعل لها الإسلام حقوقاً وواجبات ،
واحترمها طفلة وأماً وزوجة وحبيبة وشريكة عمر ، ولم ينقض محمد عليه
الصلاة والسلام ما سبقه من أديان إبراهيم وموسى وعيسى بل أيدها وثبتها
وباركها .

كان محمد يدعو إلى خير الجميع ولكنه اصطلم بمقاومة هائلة من
الجميع .

وحينما نزلت آية الدعوة :

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »
(٢١٤ - الشعراء)

صعد محمد الصفا ونادى :

يا معشر قريش !

قالت قريش . . محمد على الصفا يهتف

وأقبلوا عليه يسألونه ما به .

قال . . أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون .

قالوا . . نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط .

قال . . فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد يا بني عبد المطلب ،

يابنى عبد مناف يابنى زهرة يابنى تيم ، يابنى مخزوم ، يابنى أسد . . إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين . . وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله .

فنهض أبولهب - وكان رجلاً سميناً سريع الانفعال فصاح :

تبا لك سائر هذا اليوم . . ألهذا جمعتنا ؟ !

وطالبوه بالمعجزات وبأن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً ويجعل لهم جنات وأنهاراً ، ويحيل الصفا والمروة ذهباً أو يحيى الموتى أو يسقط السماء عليهم كسفا ورجوماً أو ينزل عليهم كتاباً فى رق مسطور من السماء يشاهدونه بأعينهم ، أو يجلب لهم الله وملائكته .

ونزل القرآن :

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّىْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا »

(الإسراء - ٩٣)

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِىْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَمْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(الأعراف : ١٨٨)

« قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنِّى أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ »

(الأنعام - ٥٠)

فاتهموه بالسحر والجنون والكهانة وأغروا به شعراءهم يهجونهم ويقارعونه ودفعوا إليه السفهاء يرجمون بيته .

وكان ما يلقى أتباعه من الاضطهاد أضعاف ما يلقاه .

وتآمر وا عليه فأعلن عمه أبو طالب حمايته .

ودعا أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب إلى حماية محمد من قريش فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب فإنه لجح في عداوته وانضم إلى صفوف الخصوم . وبدأت قصة من قصص الثبات والصمود والكفاح السليبي أمام التعذيب والاضطهاد .

هذا أبو طالب الذي يمنع محمداً ويحميه يواجه طوفاناً من السخط . وهذه قريش مجتمعة تذهب إلى الشيخ مهددة متوعدة :
- يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وقد استهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

ويضعف أبو طالب فيقول لمحمد :

أبقى عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيع . . فيجواب محمد في ثبات عجيب :

يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

ويتأثر العم لهذا الثبات الفريد ويقبل على ابن أخيه مطمئناً :

أذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً .

وما تكاد تمضي أيام حتى يعود رهط قريش إلى محمد بوسيلة أخرى ليشنوه عن دعوته . . هذه المرة يفوضون عتبة بن ربيعة ليعرض على محمد عرضاً مغرياً . . وهذا عتبة يقول لمحمد :

يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفحت آلتهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها . . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك ، إن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رتباً (شيئاً من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرا .

فلا يكاد يفرغ من قوله حتى يكتفى محمد بأن يتلو سورة السجدة . . إنهم ينطحون الصخر وسوف تدمى رؤوسهم ولن يتحرك الصخر من مكانه ، ويهاجر بعض المسلمين ممن زادت عليهم وطأة الاضطهاد إلى الحبشة ويبقى محمد ثابتاً مع القلة القليلة أمام الطوفان .

وتشاور قریش ويقرر قرارها على سياسة جديدة لضرب محمد وأصحابه هى سياسة التجويع والمقاطعة والحصار . . ويكتبون كتاباً بالمقاطعة يعلقونه فى الكعبة ، إنه لا بيع بينهم ولا شراء ولا تزواج ولا معاملة مع بنى هاشم وبنى المطلب وكل من يتبع محمداً أو يحميه .

واحتمى محمد وأهله وأصحابه فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة يعانون الحصار والجوع لا يحصل إليهم الطعام إلا تهريباً ، ويحكى أحد الصحابة عن هذه الفترة أنه قد بلغ به الجوع ذات يوم أن عثر يده بشئ رطب فألقى به فى فمه وازدرده دون أن ينظر له . . ولا يزال إلى اليوم لا يدري ماذا كان ذلك الشئ .

ودامت المقاطعة ثلاث سنوات لم يكن يؤذن لمحمد فيها بالاختلاط بالناس إلا في الأشهر الحرم .

وتحكي السيرة أنه جاءه في تلك الأيام وفد من النصارى فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له فأسلموا وصدقوه فاغتباط لذلك قريش وسبهم قائلين : « خبيكم الله من ركب بعثكم أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه » .

وقد يسأل سائل عن السر في هذا اللدد والخصام والعناد والعداوة من قريش لمحمد وهو الذى لم يدعهم إلا إلى خير ولم ينازع أحداً في سيادته ، بل كان يقول « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » وحينما دخل مكة فاتحاً بعد ذلك بسنوات لم ينزع أباً سفيان من مكان الشرف في قومه بل ثبته في مكانته وجعل للاجئ إلى بيت أبي سفيان كاللاجئ إلى الحرم .

لم إذن كل هذه الخصومة والدد ؟

هى الكبرياء لمجرد الكبرياء . . وهذا أبوجهل يحكى عن نفسه .

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفوسى رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء . . فمتى ندرك مثل هذه . . والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقها .

إنها لم تعد مسألة حق وباطل وإنما أصبحت مسألة . . أنا . . وهو . . مسألة أبى جهل وأبى لهب . . ولماذا لا يكون أبوجهل هو النبي . . ثم إن دين محمد كان سيكلفهم من أمرهم رهقاً . فإن الواحد منهم ليزنى ويسرق ويقتل

ثم يقدم رشوة من القرابين إلى الأصنام فينتهى كل شيء وينام قرير العين . .
أما محمد فيهددهم بأنهم سيبعثون بعد موت ويقفون بين يدي عذاب شديد
وحساب لا تضل فيه شاردة ولا واردة .

ويموت أبو طالب وتموت خديجة في سنة واحدة وينهد الركن الشديد
الذي يحتمى به محمد ويهون أمره على الناس حتى ليحثو السفهاء على رأسه
التراب سخرية وتنكيلا . . فتغسل فاطمة عن رأسه التراب وهي تبكي .
ويخرج محمد إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف فيغرون به
سفهاءهم ويسبونهم ويرضخون أقدامه بالحجارة ، ويفر منهم لاجئاً إلى
حائط لعبة فيحتمى به ويتهاوى متعباً رافعاً بصره إلى السماء يتضرع :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم
الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى . . إلى غريب
يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى . . إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى . .
ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ،
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . .
لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

ويخرج إليه العبد عداس بقطف عنب فيمد محمد يده قائلاً . .
باسم الله . . ثم يأكل . . . فيقول عداس . . هذا كلام لا يقوله أهل هذه
البلاد فيسأله محمد عن بلده ودينه . . فيقول نصرانى من نينوى . . فيقول
النبي : من بلد الصالح يونس بن متى . . فيسأله عداس متعجباً . وما يدريك
ما يونس بن متى . . فيقول محمد . . ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى . . فيكب

عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه . . وعتبة الباب يعجب من هذا الذى فعله العبد .

ويعرض محمد نفسه على قبائل العرب ، فيأتى كندة فى منازلها ، ويأتى كلباً فى منازلها ، ويأتى بنى حنيفة وبنى عامرو بنى صعصعة فلا يسمع له أحد ويردونه رداً قبيحاً :

ويشترط بنو عامر أن يخلفوه على الأمر من بعده فلما يجيبهم . . أن الأمر لله يضعه حيث يشاء . . ينفضوا عنه .

فى هذا الظلام المتراكم يأتى الله ببشارة الإسراء والمعراج ويستضيفه فى السموات العلى . . فلما يقول لقريش إنه أسرى به إلى بيت المقدس فى ليلة يتضحكون ساخرين / ويذهب أحدهم إلى أبى بكر ليقول له : إن صاحبك يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد فى ليلة . . فيقول الصديق . . إن كان قالها فقد صدق فإنه ليخبرنى أن القرآن ينزل عليه من سبع سموات فى ساعة زمان فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ويصف محمد الطريق إلى بيت المقدس ويصف المسجد الأقصى ويصف ما رأى من غير فى الطريق فلا يخالف الواقع فى شىء .

وتأتى البشارة الثانية بإسلام نفر من الخزرج من أهل المدينة فى بيعة العقبة ومعاهدتهم محمداً على مناصرته .

ويقول العباس بن عبادة الذى حضر هذه البيعة للقوم محذراً :

يا معشر الخزرج . . أتعلمون علام تباعون هذا الرجل . . إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فدعوه فهو والله إن

فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .
فيجيب القوم :

إنا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف .

ويعدون الأيدي ويتبايعون :

بايعنا على السمع والطاعة في عسرناء ويسرناء ومنشطنا ومكرهنا . .
وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم .

وكان ذلك في جوف الليل في شعب من شعاب العقبة والناس نيام لا يدرون ماذا ينجي لهم المستقبل .

ويشتد أزر الأنصار في المدينة ويهاجر إليهم المسلمون تبعاً . . ثم يهاجر محمد ذات ليلة مخالساً العيون التي تراقبه وقد ترك على بن أبي طالب مُسَجًى في برده الحضرمي الأخضر واصططحب أبا بكر إلى مخبأ غار نور ثم إلى المدينة من طريق غير مطروق .

ويروى القرآن :

« إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

(التوبة : ٤٠)

ماهى تلك الجنود غير المربية التي أيد الله بها نبيه

هل هى العناكب التي نسجت خيوطها على فم الغار أو الحمام الذي عشش على مدخله ، أو الملائكة التي ثبتت قلب محمد وصاحبه ، أو أشياء

أخرى مما لا نعرف ؟ ! تلك من أنباء الغيب ومن أسرار النبوة التي يتميز بها جهاد الأنبياء عن جهاد العظماء من الناس .

وإننا لنرى تلك العصبة من الأنصار التي بايعت النبي عند العقبة هي التي تشد الآن على يدي رسولها تؤكد له الولاء قبل وثبة بدر .

والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . . . إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء . . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

ثم يشتعل القتال على ما وصفنا بين محمد وقريش وبين محمد واليهود وبين محمد وسائر العرب ويؤرخ التاريخ لغزوات بدر وأحد والخندق وبنى النضير وبنى قريظة وبنى المصطلق .

ويحفر الذين حاربوا أسماءهم في ذاكرة الزمن ، ونتعرف على الذين جرحوا والذين ثبتوا والذين قتلوا والذين تخلفوا والذين قعدوا كل منهم نراه مسجلاً بالاسم والنسب والقبيلة وكيف ومتى وأين سقط . لم يمح الزمن شيئاً .

وتواتر الكتب ليؤيد بعضها بعضاً وليرسم صورة مجسمة حية لتلك المسيرة العظيمة التي ساندها الرجال صفّاً واحداً وراء رجل يتقدم بأمر السماء . وبين وقت وآخر كانت المسيرة تتوقف ليلتقط الزمن أنفاسه . . ومن تلك ألقوفات المثيرة للتأمل كانت وقفة الحديبية وقد خرج محمد إلى مكة في ألف وأربعمائة محرمين للعمرة لا يحملون سلاحاً إلا السيوف في غمدها يسوقون الهدى أمامهم سبعين ناقة لينحروها عند الكعبة لا يقصدون قتالا ،

حتى إذا كان بعسفان صادف رجلاً من بني كعب فقال له :
 إن قريشاً سمعت بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذي
 طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد « وكان
 في صف الكفار في ذلك الوقت » في خيلهم قد بلغوا كراع الغميم .
 قال محمد :

يا ويح قريش . . لقد أهلكتهم الحرب . . ماذا عليهم لوخلوا ببني وبين
 سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهري الله عليهم دخلوا
 في الإسلام وافرین . . فما تظن بي قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي
 بعثت به حتى يظهره الله أو تقطع تلك الرقبة .
 ولبث لحظة مفكراً :

إنه لم يخرج إلى مكة غازياً بل محرمًا وهو لم يتخذ للحرب عدتها .
 وبلغ المسلمون الحديبية فبركت القصواء « ناقة النبي » وقال الرسول
 إنما حبسها حابس الفعل عن مكة . . والله ما تدعوني قريش إلى خطة
 يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .
 وقد انعقد عزمه على ألا يحارب احتراماً للشهر الحرام أن يسفك فيه دم .
 ودارت المفاوضات وطالت محادثات الصلح والمسلمون من حول النبي
 يرونه قد أسرف في التنازلات ، فيقول عمر لأبي بكر وقد ضاق بالأمر
 ذرعاً .

أوليس هو برسول الله ؟ . . أولسنا بالمسلمين ؟ فعلام نعطي الدنية
 في ديننا ؟ .

وأبو بكر يشتد على عمر لاعتراضه :

يا عمر الزم غرزك « أى الزم مكانك » فإنى أشهد أنه رسول الله .
والنبي عليه الصلاة والسلام يعلم من أمر اعتراض المسلمين ما يعلم
فيقول فى صبر وحلم :

أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

ثم يبدأ حوار مثير عند كتابة المعاهدة . . فيدعو النبي على بن أبى طالب
ويقول له اكتب . . بسم الله الرحمن الرحيم .

فيعارض مندوب قريش هاتفاً . . أمسك لا نعرف ذلك الرحمن
الرحيم بل اكتب باسمك اللهم .

فيقول الرسول . . اكتب باسمك اللهم . . هذا ما صالح عليه محمد
رسول الله سهيل بن عمرو .

فيقول سهيل . . أمسك . . لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن
اكتب اسمك واسم أهلك .

فيقول رسول الله لعل . . أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ،
وتنص المعاهدة على هدنة ثلاث سنوات وعلى أن من أتى محمداً من قريش
مسليماً بغير إذن وليه يرده عليهم ومن جاء قريشاً من رجال محمد مرتداً
لم يرده . . كما تنص على حق المسلمين فى زيارة الكعبة للعمرة والحج .
ورأى المسلمون فى تلك الشروط إسرافاً فى التنازل لقريش بدون
مبرر .

ولكن المستقبل ما لبث أن كشف للمسلمين عن عمق هذه السياسة
التي اتبعها النبي . . فقد خرج المسلمون الجدد من قريش مهاجرين إلى
المدينة فردهم النبي وفاء بالمعاهدة . . فأرأوا أن عودتهم إلى قريش ستكون

هلاكا لهم . . فألفوا عصبة من سبعين رجلا بقيادة أبى بصير وعسكروا فى « العيص » على ساحل البحر الأحمر يقطعون قوافل قريش إلى الشام . . مما جعل قريشاً تتقدم بنفسها وتطلب من النبى قبولهم فى المدينة وتطلب منه إلغاء بند المعاهدة الذى ينص على رد المسلمين الفارين من قريش .

ثم إن هذه المعاهدة كانت أول اعتراف بدولة المسلمين وبمحمد على رأسها زعيماً وليس كاهناً ولا مجنوناً ولا قاطع طريق . . كما أنها أعطت المسلمين الحق فى الحج والعمرة . . وأهم من ذلك أنها أعطتهم الأمان من جهة الجنوب فاستطاعوا أن يتفرغوا لتصفية اليهود أعدائهم فى الشمال ثم لإرهاب أكبر الأعداء . . الروم والفرس بغزوة مؤتة التى ذكرناها ، ثم بغزوة تبوك التى خرج فيها النبى فى أشهر القيظ فى جيش جرار يتقدمه عشرة آلاف فارس بلغ به تبوك . فانسحبت جيوش الروم مؤثرة السلامة . . وأقبل عاملهم على أيله الأمير يوحنا بن روبة وعلى صدره صليب من ذهب فقدم الهدايا للنبى ودفع الجزية وكتب له الرسول كتاب أمان :

بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا ابن روبة وأهل ايله سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . وعاد الجيش دون صدام مع الروم . . ولكنه ألقى للمسلمين المهابة فى قلوب سكان المنطقة وحكامها .

وهذا بعض ما أثمرته سياسة النبى الحكيمة فى صلح الحديبية .
وإننا لنرى النبى بعد ذلك يتفرغ لبعث الرسائل إلى الملوك والزعماء .
وها هو ذا يكتب إلى هرقل :

بسم الله الرحمن الرحيم . . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم
الروم . . سلام على من اتبع الهدى . . أما بعد . . فإني أدعوك بدعاية
الإسلام . . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . . فإن توليت فإنما عليك إثمك
وإثم رعيتك .

وندهش كيف يخاطب محمد هرقل بهذه الثقة والصلابة . . وهو من هو
في ملكه وسلطانه . . ولكنها بصيرة النبي التي رأت في هذا الملك العظيم
نسيجاً أوهى من نسيج العنكبوت ، فهي عظمة بلا قيم وقوة مادية بلا روح
تحفظها .

ألم يسقط ملك الروم بعد ذلك بسنوات أمام سيف خالد بن الوليد
في معركة اليرموك ، ويتبدد جيش من مليون مقاتل في أربع وعشرين ساعة
وكانه هباء في الهواء .
سبحان الله . .

أهو تخطيط أبراهام لنكولن أم مهارة جيفارا .

أمن نحن أمام النبوة وجهاً لوجه حيث تعمل قوى الغيب مع قوى البشر
وحيث يشع الروح العظيم المسجى في المدينة على قلوب هؤلاء البدو فيدفعهم
أمامه كالإعصار ، ويبلغ بهم القيروان والأندلس وشواطئ الأطلس غرباً
وشواطئ الفارسي شرقاً ومضيق الدردنيل شمالاً في لازمان . . لا يحملون
رسالة دمار كما كان يفعل غزاة المغول والتتار . . وإنما يحملون مصاحف
وحضارة ونوراً وحباً وخيراً للجميع .

وكذب من زعم أن الإسلام دخل القلوب بالسيوف . . فماذا فعلت
سيوف الطليان وقنابلهم وطائراتهم في ليبيا . . إنها لم تخرج مسلماً واحداً

عن دينه . . ولا استطاعت قنابل فرنسا وطائراتها وجيوشها أن تدخل ديناً في تونس أو المغرب أو الجزائر ، فما زالت العروبة والإسلام هناك في كل مكان حيث تركها عقبة بن نافع منذ أكثر من ألف عام .
إنما هنا النبوة في جانب .

وفي الجانب الآخر العظمة الدنيوية بحدودها تبنى أمجاداً من زبد البحر . . ثم يذهب الزبد جفاء . . أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .
وتنقض قریش عهد الحديبية وتقتل نفرًا من خزاعة كانوا قد أسلموا وذلك بتحريض من عكرمة بن أبي جهل . . ويذهب عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة يستنصر النبي ويقص عليه ما حدث ولا يرى النبي ردًا على هذا الغدر إلا فتح مكة .

ويخشى أبو سفيان عاقبة هذا النقص لعهد الحديبية فيذهب إلى المدينة ويحاول أن يلتقي النبي ويدخل على ابنته « أم حبيبة » وكانت قد عادت من هجرة الحبشة ودخلت في حريم النبي زوجة ، فتطوى أم حبيبة الفراش من أبيها حتى لا يجلس عليه فلما يسألها . . أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها . . تجاوبه بل هو فراش الرسول عليه الصلاة والسلام وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه . . فيرد أبو سفيان مغضباً . .
والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر .

ولا يجد أبو سفيان بين المسلمين من يستمع إليه فيعود إلى مكة وقد خابت سفارته وقد شعر أن محمداً لابد سائر على أعقابها لفتح مكة .

ويجهز النبي جيشاً من عشرة آلاف ويسير حتى يبلغ « مر الظهران » وقریش غارقة في الجدل ماذا تصنع في مواجهة محمد . . ويخرج أبو سفيان

في حمى العباس بن عبد المطلب حتى يبلغ النبي « بنيق العقاب » ويعلن إسلامه .

ويزحف الجيش على مكة . . وأبوسفیان يرقب مسيره وهو واقف بمضيق الوادى عند مدخل الجبل إلى مكة ، تمر أمامه كتائب المسلمين آلافاً مؤلفة ، فما يروعه منها إلا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار في دروع الحديد لا يرى منهم إلا الحَدَق . . فلما يتبين أمرهم يهمس لصاحبه . . يا عباس والله ما لأحد بهؤلاء طاقة . . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً . . ثم ينطلق إلى قومه يصبح بأعلى صوته . . يا معشر قريش . . هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفیان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

ويدخل محمد مكة في الخيل والحديد وقد حنى رأسه على ناقته ونكس بصره تواضعاً لربه . . يقول لأعداء الأُمس الذين رجموه وعذبوه وقتلوا أصحابه :

يا معشر قريش . . ما ترون أنى فاعل بكم .

فيجيئون وبهم رجفة :

خيراً . . أخ كريم وابن أخ كريم .

فيقول :

اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وهذا هو النبي .

محمد صانع الرجال





أكاد أنخيله عليه الصلاة والسلام من الأوصاف التي وصلتنا في كتب
السيرة . . وسطاً في الطول . . ربعة . . ضخم الرأس . . واسع الجبين . .
مدور الوجه . . أزهر اللون . . واسع العينين طويل الأهداب شديد سواد
الحدقة . . مفلج الأسنان غزير اللحية . . بين حاجبيه اتصال خفيف . .
وفي جبينه عرق يدره الغضب . . عريض الصدر . . كبير الكفين والقدمين . .
خفيف اللحم متماسك البدن . . إذا مشى ألقى جسده إلى الأمام وسار في
خطو ثابت وقد خفض بصره إلى الأرض . . متواصل الأحزان . . دائم
الفكرة . . طويل السكوت . . لا يتكلم في غير حاجة . . فإذا تكلم أوجز
وأبلغ . . دمث الطبع دون جفوة ودون رخاوة . . إذا التفت التفت جميعاً
وإذا تكلم تكلم من كل فمه وأشداقه . . وإذا أشار أشار بكفه كلها وإذا
تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى وإذا
غضب أعرض وأشاح . . جُلَّ ضحكة التبسم . . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر
لها . . وإنما يغضب للحق وللمدين وحينئذ لا يقوم لغضبه شيء . . ما ضرب
خادماً ولا امرأة قط وما ضرب بيده شيئاً إلا أن يكون جهاداً في سبيل الله .

تقول عائشة . . لم يمتلئ جوف النبي شعباً قط وكان يطوى أكثر أيامه صائماً وكنت أقول له : نفسى لك الفدا لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك فيقول لى : يا عائشة . . ما لى وللدنيا إخوانى أولو العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجندنى أستحي إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم ، وما من شيء هو أحب إلى من اللحاق بإخوانى وأخلائى .

ومع ذلك لم يكن يرفض الهدية تأتيه بالشهى من المأكل والناعم من الملبس ، ولكنه كان يرفض أن يسعى إلى هذا العيش اللين أو يفكر فيه أو ينشغل به . . ولهذا كان يربى نفسه ويروضها على الفقر والجوع والقصص فى المطالب والرجبات ، ليكون المثل والقذوة لما أرادته الإسلام . . دين الاعتدال والتوسط . . فلا رهبانية ولا قتل للنفس . . ولا تهالك وإطلاق للشهوات . . وإنما توسط واعتدال . . وبذلك ينجو الإنسان من سيطرة نفسه ومن سيطرة الآخرين . . فلا يعود لأحد سيادة عليه . . وهذه هى الحرية . . أن يحرر نفسه من جميع المطالب فلا يعود يسمح لشهوته أن تذله لمطعم أو ملبس أو مخلوق .

هذا الوسط . .

هذا الصراط المستقيم الدقيق أدق من الشعرة بين الإفراط والتفريط هو ما انفردت به الشريعة وما حققه النبي بسلوكه النادر .

وكان دائماً ذلك الرجل البسيط المتواضع . . تراه فى بيته يغسل ثوبه ويرقع بردته ويحلب شاته ويخصف نعله . . وتراه يأكل مع الخادم ويعود المريض ويعطى المحتاج . . وتراه وقد احتمل حفدته على كتفيه وزاح يصلى .

وكان الحنان والحب مجسداً

أحب الإنسان والحيوان حتى النبات حنا عليه فكان يوصى بالشجر
ألا يقطع . . حتى الجماد شمله بحبه فكان يقول عن جبل أحد . . هذا
الجبل يحبنا ونحبه . . حتى تراب الأرض كان يسمح به وجهه متوضئاً
في حب وهو يقول : . . تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة .

وتروى السيرة أنه لما كسرت رباعيته وشج رأسه يوم أحد شق ذلك على
أصحابه فقالوا : لو دعوت عليهم . . فقال . . إني لم أبعث لعناً ولكني
بعثت داعياً ورحمة . . اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون .

ولما جاء زيد بن سعة يتقاضاه ديناً عليه وجبذ ثوبه جبذة منكراً آخذاً
مجامع ردائه مغلظاً له قائلاً . . إنكم يا بني عبد المطلب مُطل فانتهره عمر
. . ابتمس النبي قائلاً . . أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج يا عمر . . تأمره بحسن
التقاضى وتأمري بحسن القضاء . . ثم قال لقد بقى من أجله ثلاث (ثلاثة
أيام) وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده لما روعه فكان هذا سبب إسلامه .

والقصص عن حلمه وعفوه ومحبته كثيرة لا تنتهى .

وكان دائماً ذلك الرجل الكريم الذى وصفه أصحابه بأنه ينفق إنفاق
من لا يخشى الفقر أبداً .

لم يحدث أن ادخر درهماً .

وقد مات كما هو معلوم ودرعه مرهونة عند يهودى .

وكان يلخص سنته فيقول :

المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب مذهبى ، والشوق مركبى ،
وذكر الله أنيسى ، والحزن رفيق ، والصبر ردائى ، والصدق شفيعى ، والعلم

سلاحى ، والجهاد خلقي ، وقرة عيني في الصلاة .
ذلك هو محمد عليه الصلاة والسلام النبي الأمي الذي تفوق على
كل القارئين والكاتبين . . والشريف الذي قال عنه ربه . . وإنك لعلی
خلق عظيم .

وكانت ثقافته هي ما قال لأبي بكر .
أدبني ربي فأحسن تأديبي .
وكان بيت النبي في المدينة من جريد يمسكه الطين وكانت بعض حجراته
من حجارة مرصوفة وكانت جميعاً مسقوفة بالجريد . . أما سريره فخشبات
مشدودة بالليف عليها حشية ليف .

وهذا جهاز فاطمة بنت النبي تصفه السيرة بأنه رحاءان وسقاءان
ووسادة من ليف وبعض العطر والطيب . . وتروى السيرة أن زوج فاطمة
على بن أبي طالب لم يستطع أن يستأجر لها خادماً لفقره فكان يساعدها في
أعمال البيت . . ونراهما يسألان النبي خادماً وقد عاد من إحدى غزواته
بسي وغنائم . . فيجيب النبي عليه الصلاة والسلام :

لا والله لا أعطيكما وأدع الفقراء من المسلمين تتلوى بطونهم لا يجدون
ما يأكلون .

ثم ما يلبث أن يقبل عليهما في الليل وقد انكمشا في غطائهما يرتجفان
من البرد ، إذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما
انكشفت رأساها . . فيقومان للقاءه فيهمس في حنان . . مكانكما . .
ثم يضيف مترقفاً . . ألا أخبركما بخير مما سألتاني . . فيجيب الاثنان . .
بلى يا رسول الله . . فيقول . . كلمات علمنهن جبريل . . تسبحان الله

فى عقب كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً . . وإذا أويتا
إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين وتحمدان ثلاثاً وثلاثين وتكبران ثلاثاً
وثلاثين .

ويقول الإمام على . . فوالله ما تركتهن منذ علمنهن
ذلك هو عطاء الأنبياء .

وإنا لنرى أبوة النبي عليه الصلاة والسلام فى ذلك الصحابى الذى
جاء يطلب الإذن فى الجهاد فزاه يسأله . . ألك أبوان . . فيقول . . نعم
فيجيبه . . ففيهما فجاهد . .

ونسمع نفس القصة من معاوية بن جاهمة السلمى يقول :
أتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت له يا رسول الله إني كنت أردت
الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة فإذا به يسألنى . . أحية أمك فأقول
نعم . . فيجيب . . فارجع فبرها . . ثم إني لآتية من الجانب الآخر ثم إني
لآتية من أمامه فأعيد عليه سؤلى فيقول لى . . ويحك فالزم أمك فإن الجنة
تحت قدميها .

ويروى أبو أمامة أن رجلاً قال . . يا رسول الله ما حق الوالدين على
ولدهما فأجابه النبي . . هما جنتك ونارك .

ذلك هو النبي الأب الذى كان يسجد فيتسلق حفيده على ظهره
فيطيل من سجده حتى يقضى الطفل حاجته كراهية منه فى إزعاجه .
فإذا تحدث النبي فإنه لا ينطق عن الهوى ولا يأتى باللغو وإنما ينطق
بالحكمة الخالصة .

يصف الجاحظ كلامه فيقول :

هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ، ونزه
عن التكلف . . لا يحتج إلا بالصدق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل
المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل . . لم يقم له خصم ولم يفحمه
خطيب ، ولم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أحسن
موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ،
من كلامه صلى الله عليه وسلم .

وكثير من كلامه عليه الصلاة والسلام يجرى مجرى الأمثال .

لن يهلك امرؤ بعد مشورة .

رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم .

ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس . . الصحة والفراغ .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه .

ليس الشديد بالصرعة (بالقوى) إنما الشديد من يملك نفسه عند

الغضب .

اليد العليا خير من اليد السفلى (أى الذى يعطى خير من الذى يأخذ) .

وقد عرف عن النبي السهولة واليسر والبعد عن المغالاة وطلب الاعتدال ،

وكانت وصيته لسفرائه الذين بعث بهم ليفقهوا الناس فى الدين يسروا

ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، وسددوا (اعتدلوا وتوسطوا) وقاربوا ،

(أى قاربوا من الغاية ما استطعتم) .

« إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله فإن المنبت (المرهق نفسه في السير) لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ومن ذلك أن رجلاً حديث عهد بإسلام جاء النبي فقال له إنه لا يطيق الصلوات كلها وإنه يتعهد ببعضها ، فلم ينهه الرسول ، فتعجب الصحابة فقال لهم بعدما ذهب . . إذا تمكن الإيمان من قلبه فسيصلها جميعاً .

ومن خصائص الإسلام أنه لا يرى الخير الأمثل في حياة الصوامع ولا يراه أيضاً في لذات الواقع الهابطة ، وإنما هو يهذب الواقع ما استطاع ويمد منه الجسور ليصعد بها إلى الحياة المثلى خطوة خطوة دون إرهاقٍ للفطرة والطبع . ولولا هذا الرفق واللين في تعهد النفس ورياضتها لبقيت المثل في أبراجها حبرا على ورق ولضاع الإنسان في حضيض المادة كما تضيع المياة العذبة في ثنايا الرمال (الدكتور بكرى شيخ أمين في كتابه أدب الحديث النبوى) وجاء في الحديث :

ما انتقم رسول الله لنفسه قط وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً .

جاء أعرابي إلى رسول الله وهو بين صحابته فأعطاه وسأله . . هل أحسنت فقال الأعرابي : لا أحسنت ولا أجملت . فقاموا إليه فقال لهم . . كفوا عنه فدخل منزله فأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً وسأله فأجابه . . جزاك الله من أهل العشيرة خيراً . . فقال الرسول إذا كانت الغداة وحضرت مع أصحابي فقل لهم ما قلت فقد أصبح في نفوسهم شيء . . فقالها بحضورهم فذهب ما كانوا يجدون عليه . . ثم قال الرسول مثلى ومثل هذا الأعرابي كرجل له ناقة ضلت فأخذ الناس يهيجونها فقال . . خلوا بيني وبين ناقتي فأخذ

لها من قمام الأرض هوناً هوناً حتى استناخت وشد عليها راحلتها .

وفي الحديث الشريف :

سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . . إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . .

ومن كلماته البليغة .

يد الله مع الجماعة وإنما يصاب الذئب من الغم الشاردة .

حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات .

لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

وقال للذي تشفع في شأن المرأة المخزومية التي سرقت . . « إنما أهلكت

الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » . وقال لصحابته ذات يوم . اتدرون من المفلس يوم القيامة قالوا المفلس

فيينا من لا درهم له ولا متاع . . فقال الرسول المفلس هو من يأتي يوم القيامة وقد شتم هذا ، وضرب هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيعطى هؤلاء من حسناته حتى إذا نفدت طرح عليه من خطاياهم ثم طرح في النار .

وفي رواية مسلم أن النبي قال :

المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير . .

وفي إرشادة النبي بالقوة توكيد على أن الإسلام فحولة وليس تحاذلاً ورخاوة

واستسلاماً . .

ويقول الرسول للذى سألته . . أوصني مجيباً إياه في كلمة واحدة . .
لا تغضب ، فيكرر السائل سؤاله ثلاثاً فلا يزيد الرسول عن هذه الكلمة . .
لا تغضب .
ويقول . .

تفكروا في المخلوق ولا تفكروا في الخالق فإن الله لا تحيط به الفكرة .
وعرف عن النبي أنه كان إذا استشهد بأبيات من الشعر كسر أوزانها
عامداً فينطق بيت طرفه المشهور هكذا

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك (من لم تزود) بالأخبار
يدلاً من تلاوته على وزنه الأصلي :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويقول الرافعي في هذا : إنه لم يمنع النبي من إقامة وزن الشعر إلا ما
أنزل الله في القرآن من منعه من إنشائه :
« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

(يس : ٦٩)

فلو أنه أنشد الشعر على وزنه لأدركه الوجد به ولغلبت عليه فطرته
القوية فمر في الإنشاد وخرج بذلك لا محالة إلى الاتساع فيه وإلى أن
يكون شاعراً ، ولو أنه تكلف الشعر لذهب لمذاهب العرب ونافس فيها
ثم لجارهم فيما تُستوقد له الحماية وهذا أمر يدفع بعضه إلى بعض ثم لا يكون
في جملة إلا أن ينصرف عن الدعوة ثم يأتي بعد ذلك أصحابه وخلفائه
فيأخذون فيما أخذ فيمضون على ما كان من أمرهم في الجاهلية ، ويستطير

ذلك في الناس ويستبد بهم متى استبد بهم لم تقم للإسلام قائمة .
ولكن عدم إنشاد النبي للشعر لم يكن يعني عدم تذوقه . . فقد عرف
عن النبي حسن تذوقه للشعر وطربه للقصيد الجيد . . وقد عفا عن كعب
ابن زهير حينما أنشده لاميته المشهورة . . بانت سعاد . . ورمى عليه برده
استحساناً ، كما كان يطرب إلى الخنساء في شعرها عن أخيها صخر
ويستزيدها قائلاً . . هيا يا خناس . . وكان يدعو شاعره حسان بن ثابت
ليرد على قصائد الوفود بالشعر .

إنما منع الرسول عن صنعة الشعر لا عن تذوقه . . صيانة لشخصه
الكريم من التقليد فقد أَرَادَهُ اللهُ أَنْ يَكُونَ فَرِيداً مُتَفَرِّداً فِي عَصْرِهِ ،
لا يجرى لسانه بتكلف ولا يصطنع الكلام اصطناعاً . . وطهر قلبه ليكون
وعاءاً لكلماته الإلهية .

وإن الناقد الأديب الذواق إذا استمع إلى الحديث النبوي وإلى
القرآن ليدرك بذوقه أن كلا منهما يصدر من نبع مختلف وأنه لا يمكن أن
يكون قائل الحديث هو مؤلف القرآن . .

وفي ذلك يقول العارف بالله عبد العزيز الدباغ في الإبريز :
كل من استمع إلى القرآن وأجرى معانيه على قلبه علم علماً ضرورياً
أنه كلام الرب فالعظمة التي فيه والسطوة التي عليه ليست إلا عظمة الربوبية
وسطوة الألوهية :

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»

(العلق : ١)

هنا يتبادر إلى القلب . . أن المتكلم ذات عليها لها سطوة . . من العظمة

والسطوة والجلال في الكلمات :
 «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ
 الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .
 (العلق : ١ - ٥)

وذلك الإيقاع الهائل في العبارات .
 «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاعِكَ وَيَا سَّمَاءِ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ»
 . (هود ٤٤) .

من هو الذى يلتقى بهذه الأوامر الكونية فتستجيب له الأفلاك وتصدع
 بأمره السموات والأرض . .

إن كل كلمة هي أمر جلل
 وسطوة هذه الكلمات لا يمكن أن تكون إلا عن سطوة صاحبها
 وما أبعد الفارق بين هذا الأسلوب القرآني وبين أسلوب الحديث النبوي .
 وهناك أكثر من وجه من وجوه الإعجاز يميز بها القرآن عن الحديث وقد
 أفردت لذلك باباً مطولاً في كتابي «حوار مع صديقي الملحد» في الفصل . .
 «لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد» ولمن يريد مزيداً من التفاصيل في
 الموضوع أن يعود إلى الكتاب .

ويبدو أن وقع القرآن على القلوب والآذان كان في زمنه أمراً مختلفاً
 عما هو في زماننا فقد كان الأعرابي إذا استمع إلى القرآن وقرعت العبارات
 القرآنية قلبه أناخ راحلته وشهد أن لا إله إلا الله وأسلم بجميع جوارحه . .
 كانت معجزة اللغة القرآنية بالنسبة لهذه السليقة العربية النقية أمراً جلياً
 لا جدل فيه . .

ولكننا اليوم فقدنا السليقة العربية والفطرة اللغوية الأولى وصدأت الآذان والقلوب وأصبح الأمر في حاجة إلى الاستدلال والبرهان .
وهذا ما فعله تقادم العهد وألف وأربعمئة سنة وبعدها عن ينابيعنا اللغوية وجهلنا بأصولها .

* * *

بعد فتح مكة يخرج أبو بكر يحج في ثلثائة مسلم ويقف على بن أبي طالب في الناس وهم يؤدون مناسك الحج بمنى وقد اختلط المشركون بالمسلمين يتلو عليهم سورة التوبة وفي هذه السورة نزلت أول آية صريحة تمنع المشركين من دخول المسجد الحرام :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » (التوبة : ٢٨) .
وقد صدق الله وعده فأغناهم الله من فضله ، وجعل من بلاد الحجاز أغنى دول العالم .

وقف على بن أبي طالب في ذلك اليوم يصيح بالناس :
« أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته » .

ومن يومئذ لم يحج مشرك ولم يطف بالبيت عريان (كان المشركون يطوفون من قبل عرايا) ومن ذلك اليوم وضع الأساس الأول للدولة الإسلامية .
وكان في علم الله أن هذه الدولة الوليدة ستواجه أعتى دول الشرك والوثنية (الفرس والروم) وستحاصرها الأخطار من كل جانب وسيفرض عليها

القتال فرضاً فأمر المسلمين بالجهاد :

« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » .

(التوبة : ٣٦)

* * *

وفي الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة يسير النبي إلى مكة في حجة الوداع على رأس مائة ألف تتجأب الصحارى والوديان والجبال بهتافهم . . لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . يهدرون كالمرج . . ويقف النبي يخطب الناس بعرفة ومن خلفه ربيعة بن أمية يردد ما يقوله على الناس بصوته الجمهورى :

« أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت

وإن كل ربا موضوع وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم فى الجاهلية موضوع .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن

عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم .

فأعقلوا أيها الناس قولى وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا

أبداً . . كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . . إن كل مسلم أخ للمسلم ولا يحل

لامرئى من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلموا أنفسكم
اللهم هل بلغت

(فتتجاوب الأصداء من كل صوت) . . نعم
فيقول . . اللهم فاشهد .

ويتلو الآية :

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا» (المائدة : ٣)

فيبكي أبو بكر وقد شعر أن أجل النبي قد اقترب .

ويفود النبي إلى المدينة ويبدأ بتجهيز جيش إلى الشام يضع على رأسه
أسامة بن زيد . . فيقعده المرض .

وتزداد عليه الحمى فيطلب من زوجاته أن يصبين عليه مياه سبع قرب
من سبعة آبار ثم يخرج إلى المسجد وقد عصب رأسه ويجلس على المنبر فيستغفر
لقتلى أحد ويكثر الصلاة عليهم ثم يقول :

أيها الناس أنفذوا بعث أسامة فلعمري إنه لخليق بالإمارة كما كان
أبوه خليقاً بها من قبل . . (وقد كان هناك همس بين المسلمين بأن أسامة
أصغر سناً من أن يختار لثل هذا الجيش) .

ويصمت هنيهة يلتقط أنفاسه ثم يقول :

« إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختر
ما عند الله » .

وسكت والناس على رءوسهم الطير لا يفهمون ولكن أبا بكر يبكي لإدراكه
معنى العبارة . . وإن النبي يريد بذلك نفسه وإن الله خيره بين الخلود في الدنيا

والآخرة وبين الضيافة عنده فاختر مقام العندية مع ربه .
وينظر النبي إلى أبي بكر في حنان ويأمر بأن تغلق كل الأبواب المؤدية إلى
المسجد ما عدا باب أبي بكر ويقول :
« إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة منه وإنى لو كنت متخذاً من
العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . . ولكنها صحبة الإيمان والإخاء حتى
يجمع الله بيننا عنده .

ثم يعود فيتلفت إلى أصحابه ليقول :
يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإنهم كانوا عييتي (خاصتي
وموضع سرى) فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .
وتشدد عليه الحمى فليزم بيته ويأمر أبا بكر بالصلاة بالناس . . ويغشى
عليه من الحمى ثم يفيق وهو يعانى أشد الكرب . . ويليل يده من إناء به ماء
بارد إلى جواره ويمسح على وجهه وفاطمة إلى جواره تهمس . . واكرب
أبتاه . . فيقول لها حانياً . . لا كرب على أبيك بعد اليوم .
وكان بيته سبعة دنانير قبل مرضه فيأمر عائشة بإنفاقها صدقة وهو
يقول :

ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه الدنانير . . نحن معاشر الأنبياء
لا نورث . . ما تركناه صدقة .

وفي الصباح يتحامل على نفسه ويقوم إلى المسجد عاصباً رأسه مستنداً إلى
ذراعى على بن أبي طالب والفضل بن عباس فيدخل المسجد والناس يصلون
فيجلس إلى يمين أبي بكر ويصلى قاعداً حتى إذا فرغ من صلاته استدار
إلى الناس ليقول :

أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتصّ مني . . ومن كان له عندي درهم فهذا مالي فليأخذ حقه منه .

ويلتقط أنفاسه ثم يعود فيقول :

أيها الناس . . سمرت النار . . وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يصف بذلك ما ينتظر الإسلام من بعده .

ثم يعاوده الضعف الشديد .

ثم نراه في لحظاته الأخيرة وقد وضع رأسه في حجر عائشة وهو يغتم . . اللهم أعني على سكرات الموت .

وتروى عائشة الفصل الأخير من حياته :

وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجرى فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول :

« بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

لقد اختار الرفقة مع الله على الحياة المخلدة في الدنيا والآخرة ويموت محمد ،

ويقبل أبو بكر مسرعاً إلى بيت عائشة ويستأذن للدخول . . فتقول له عائشة . . لا حاجة لأحد اليوم بإذن . . فيدخل ليجد النبي مسجى عليه برد مخطط فيقبل عليه حتى يكشف وجهه ثم يلمّ وجهه قائلاً . . ما أطيبك حياً وميتاً . . ثم يعيد الرأس إلى الوسادة ويرد البرد على وجهه ويخرج إلى الناس الذين أنكروا موته في الخارج وعلى رأسهم عمر يهدد كل من يقول بموت النبي .

ويقف أبو بكر فيهم ليقول بصوت ثابت :

أيها الناس . . من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . .

ثم يتلو قوله تعالى :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنَّ مَاتَ أُوقِلَ انْفِلَاسُكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ »
(آل عمران : ١٤٤)

ولما يسمع عمر أبا بكر يتلو الآية يخر إلى الأرض ما تحمله رجلاه وقد أيقن أن رسول الله قد مات .

ويقف أبو بكر بعد أن تمت له البيعة ليقول تلك الكلمة العملاقة ،
« أما بعد أيها الناس فقد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فاعينوني وإن أسأت فقروموني . . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أعيد له حقه إن شاء الله والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله . . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . . » .

وما أبعد الفارق بين هذا الكلام وبين تلك الخطبة الغاشمة التي يلقيها بعد ذلك الخليفة المنصور العباسي بعد أقل من قرنين من الزمان في نفس الموقف :

أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وقد جعلني الله قفلاً إن شاء أن يفتحني ففتحني لإعطائكم ،

وإن شاء أن يقفلنى أقفلنى .

هذا حاكم مستبد جاء يحكم الناس بالحكم المطلق مستمداً سلطته من الحق المقدس كملوك العصور المظلمة في أوروبا الذين كانوا يستمدون سلطاتهم المطلقة من كرسى البابوية . . وطاغية يزور على الناس جاهلية جديدة ومادية غاشمة باسم الدين والدين منه براء .

وذاك رجل آخر يخرج النور من شفتيه .

رجل شرب من نبع النبوة وخرج من مصنعها العظيم .

وتلك هي اللمسة السحرية وما تفعله في الرجال . .

وذلك هو الإشعاع الروحي وما يفعله من نفخ الحياة في الموتى وهو ما لا طاقة لعظيم من عظماء الدنيا أن يعمل به بل هو النبى وحده المؤيد بقوى الغيب المحفوظ بالعناية المحفوظ بالعصمة والتمكين

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وحسبى من الحياة أملاً أن أتبع سنته وأدعو دعوته وأبعث في لوائه وأحشر على قدمه وصلوات الله وسلامه على مولانا وسيدنا محمد إلى آخر الدهر .



فهرس

صفحة

٥	محمد .
٢٥	ليست عظمة بل نبوة .
٤١	روح مشعة أسرة .
٥٥	مسيرة كالإعصار .
٧٣	محمد صانع الرجال .

صدر للمؤلف

- | | |
|--------------------------------|----------------------------|
| ٢٣- الغابة | ١ - الله والإنسان |
| ٢٤- مغامرة في الصحراء | ٢ - أكل عيش |
| ٢٥- المدينة (أو حكاية مسافر) | ٣ - عنبر ٧ |
| ٢٦- اعترفوا لى | ٤ - شلة الأنس |
| ٢٧- ٥٥ مشكلة حب | ٥ - رائحة الدم |
| ٢٨- اعترافات عشاق | ٦ - إبليس |
| ٢٩- القرآن محاولة لفهم عصرى | ٧ - لغز الموت |
| ٣٠- رحلتى من الشك إلى الإيمان | ٨ - لغز الحياة |
| ٣١- الطريق إلى الكعبة | ٩ - الأحلام |
| ٣٢- الله | ١٠- أينشتين والنسبية |
| ٣٣- التوراة | ١١- فى الحب والحياة |
| ٣٤- الشيطان يحكم | ١٢- يوميات نص الليل |
| ٣٥- رأيت الله | ١٣- المستحيل |
| ٣٦- الروح والجسد | ١٤- الأفيون .. (سيناريو) |
| ٣٧- حوار مع صديقى الملحد | ١٥- العنكبوت |
| ٣٨- الماركسية والإسلام | ١٦- الخروج من التابوت |
| ٣٩- محمد | ١٧- رجل تحت الصفر |
| ٤٠- السر الأعظم | ١٨- الإسكندر الأكبر |
| ٤١- الطوفان | ١٩- الزلزال |
| ٤٢- الأفيون .. (رواية) | ٢٠- الإنسان والظل |
| ٤٣- الوجود والعدم | ٢١- غوما |
| ٤٤- من أسرار القرآن | ٢٢- الشيطان يسكن فى بيتنا |

- ٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القروء
٤٨- القرآن كائن حَيَّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامي
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيح الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
- ٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد التنازلي
٥٩- حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

- | | |
|------------------------|---------------------|
| صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ | قصص مصطفى محمود |
| صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ | روايات مصطفى محمود |
| صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ | مسرحيات مصطفى محمود |
| صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ | رحلات مصطفى محمود |

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٧/٧٧٥٣
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-5435-5

١/٩٧/٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائماً على تقديم الأعمال
الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى
محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى
ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبواباً جديدة لم تفتح من
قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية
وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التي تحفل
بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات
العلمية الحديثة.. والتي لا تزال تثير مزيداً من الجدل
المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى
القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض
أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء
التميز المتنوع.



دارالمعارف

٠١٨٦٣٤/٠١

